# تفسير

# سورة الذاريات

## تفسير سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

والذاريات ذروا (١) فالحاملات وقرا (٢) فالجاريات يسراً (٣) فالمقسمات أمرا (٤) إنما توعدون لصادق (٥) وإن الدين لواقع (٦) والسماء ذات الحبك (٧) إنكم لفي قول مختلف (٨) يؤفك عنه من أفك (٩) قتل الخراصون (١٠) الذين هم في غمرة ساهون (١١) يسئلون أيان يوم الدين (١٢) يوم هم على النار يفتنون (١٣) ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون (١٤).

(١)

### في عمود السورة واتصالها بما قبلها ونظمها في نفسها إجمالا:

اعلم أن هذه هي السورة الثانية من جملة السور السبع ٥٧ التي تثبت الرسالة والقرآن العظيم من جهة كونه خبراً عن الجزاء ونذيرا لمن أشرك بالله وكذب برسله وما أنزل معهم. فعمود هذه السور كلها أمر واحد، لكن من جهات مختلفة، كما مر بيانها في تفسير السورة السابقة. وإنما نذكر ههنا من جهات ذلك العمود ما يختص بهذه السورة وما يبين الفرق بين هذه والتي قبلها.

فاعلم أن في السابقة إثبات البعث وإبطال شبهتهم فيه، وفي هذه السورة إثبات الجزاء، فبدأ السابقة بقوله: ﴿ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن

٥٧ أي سورة ق ، والذاريات ، والطور ، والنجم ، والقمر ، والرحمن ، والواقعة .

جاء هم منذر منهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب أ إذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد﴾ [سورة ق/١-٣].

ثم أتبع ذلك استدلالا على البعث وأشار إلى عاقبة المكذبين، فقال تعالى: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد﴾[سورة ق/١٢-١٤]

ولم يفصل قصصهم بل اكتفى بالإشارة إليها، وبذكر الدلائل الفطرية الواضحة على البعث. وختم السورة بأمر النبي بالصبر والصلاة والتذكير، وجعل آخرها قوله: ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير. نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ [سورة ق/٤٤-٤٥].

وأما هذه السورة فلما جعل عمودها جهة الدينونة والجزاء بدأها بالشهادات عليها وصرح بها حيث قال تعالى بعد إيراد الشهادة: ﴿إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع﴾ [سورة الذاريات/٥]. وهذا الوعد والدينونة كلا هما يعم الرحمة والنقمة فإن الوعد قد جاء بكليهما، وكذلك لفظ الدين عام فإنه إيفاء كل ذي حق حقه. وبحسب هذا العموم جاء ما بعد ذلك فإن الله تعالى ذكر فيها من القصص ما فيه جهتان كما ستعلم، وكما قال:﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ [سورة الذاريات/٢٢]، "فما توعدون" يعم الجهتين، وبعد ذلك قال: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ [سورة الذاريات/٢٤]. وهذا الحديث هو البشرى بإحياء قوم وإماتة قوم كما صرح بذلك في سورة الحجر حيث قال تعالى: ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾ [سورة الحجر/٤٩-٥١].



ولكن لما جعل في هذه السورة الإنذار غالبا ذكر وقائع إهلاك الأمم ولكن في كلها عذاب ورحمة كما ستعلم وإنما لم يذكر جانب الرحمة بالتصريح في هذه القصص لما نبه عليها وعقد عليها سورا أخر حيث ذكر نجاة المؤمنين في كل هذه القصص. ولذلك بعد إيراد الوقائع المنذرة أشار إلى أصل ذلك وهو أنه تعالى وحده خالق كل شئ بقوة وحكمة فجعل الخلق زوجين لإتمام الفائدة فلم يخلق عبثا ولا ترك خلقه سدى، فلابد من الأجل لإتمام الغاية ولابد من النقمة لأجل الرحمة، فدعا إلى التوحيد على وجه خاص يدل على الجزاء والدينونة. وسيأتيك تفاصيل الأمور في مواضعها إن شاء الله تعالى.

## (٢)

## تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (١-١٤)

[الذاريات] أي الرياح الذاريات فإن "الذرو" هو نثر الغبار والرماد والأوراق وذلك من الوصف المعلوم للرياح. قال أعشى بكر بن وائل:

فجرى بالغلام شِبهَ حريقٍ    في يبيس تذروهُ ريح شمال ٥٨

فاكتفى به عن تسمية الموصوف كما هو شائع في كلام العرب وكثير في القرآن.

﴿فالحاملات وقرا﴾ عطف الصفات بالفاء دليل على ترتيب في الصفات وذلك يدل على أنها صفات شئ واحد، بل ربما يعطف بالواو مع كون القسم بشيء واحد كما ترى في أول سورة المرسلات فالقول بأن هذه الصفات لأشياء مختلفة يخالف النظائر وكلام العرب مثلا:

---

٥٨ ديوانه وجمهرة أشعار العرب: ٣٤٣ .

﴿والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا﴾ [سورة العاديات/١-٥]

وقال ابن زيابة:

يا لهف زيابة للحارث الصابح فالغانم فالآئب ٥٩

ثم لا حاجة إلى جعل هذه الصفات لأشياء متعددة، فإنها كلها مناسبة بالموصوف الواحد كما سترى.

و"الوقر": الثقل والحمل، وههنا مطلق فيعم كل ما تحمله الريح وسيأتيك بيانه. فيجوز أن يراد به السحاب لثقله، كما قال تعالى: ﴿وينشئ السحاب الثقال﴾ [سورة الرعد/١٢]. ومن وصف الرياح حمل السحاب كما جاء في القرآن: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء﴾ [سورة الأعراف/٥٧].

[فالمقسمات أمرا] قسّم الأمر: ميزه وفرق بين وجوهه، وكذلك قسم الأمر. وفي الأول مبالغة مثل كسّر وكَسَر قال المرار بن المنقذ يصف الحمار الذي ينظر مواقع العشب:

ظلَّ في أعلى يفاعٍ جاذلاً يقسمُ الأمر كقسم المؤتمر ٦٠

والرياح بتصاريفها تفرق بين قوم وقوم فتكون رحمة لهذا ونقمة لذاك كما سيأتيك بيانه. ونسبة الأفعال الإرادية إلى غير ذوي العقول شائع جدا في كلام الناس والقرآن العظيم.

---

٥٩ ديوان الحماسة ص: ٩٢/١ بتحقيق عبدالله عسيلان

٦٠ المفضليات: ٨٦ (تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف-القاهرة)



[إنما توعدون لصادق] "توعدون" من الوعد، أي ما وعدكم الله على لسان رسله وأقام عليه دلائل بينة وقد كثر في القرآن أن القيامة والبعث والجزاء حسب الأعمال الحسنة والسيئة كل ذلك وعد من الله تعالى، مثلا: ﴿إليه مرجعكم جميعا، وعد الله حقا، إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا﴾ الآية [سورة يونس/٤]، أيضا: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا﴾ [سورة النحل/١٣٨]، أيضا: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾ [سورة الأنبياء/١٠٤]، أيضا:﴿ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ [سورة الكهف/٢١] وهذا كثير.

ثم يشمل هذا الوعد أيضا ما وعد الله المؤمنين من النصرة، والكافرين من الخذلان في هذه الحياة. وقد جاء ذكر ذلك في القرآن، فمنه قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ الآية [سورة النور/٥٥]. وهذا أيضا كثير. فقوله "إنما توعدون" بظاهره يعم كل ما وعدوا ولكن موقعه يخصه بما وعدوا من البعث كما جاء فيما ذكرنا من الآيات، وكما يفسره ما يتبعه من ذكر وقوع الدين.

[وإن الدين لواقع] أي الدينونة والجزاء، وذلك داخل في "ما توعدون"، فالعطف من قبيل عطف الخاص على العام أو الجزء على الكل. وذلك يكون لبيان الاعتناء بالمعطوف وهو ظاهر ههنا، فإن الدين أي الجزاء هو المقصود من البعث بعد الموت كما صرح بذلك في كثير من المواضع.

[والسماء ذات الحبك] السماء يطلق على معان، ومنها السحاب كما في قوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي﴾[سورة

هود/٤٤]، وهو المراد ههنا، وذلك لوجوه:

الأول: أن القسم السابق هو بالرياح، والمناسبة بين الرياح والسحاب أظهر، وقد ذكرا معا في مواضع.

والثاني: أن المناسبة بين المقسم عليه والمقسم به تقتضي ذلك كما سيأتيك بيانه في موضعه.

والثالث: أن الوصف "بذات الحبك" يدل عليه دلالة واضحة، وبيانه أن الحبك هو العقد كما قال أبو دؤاد:

كأن الغضون من الفهدتين ... إلى طرف الزور حبك العقد ٦١

ومنه الإدماج والإحكام في النسج، ومنه "الحباك" وجمعه "الحبك" للطرائق والأسرّة التي توجد في الثوب المحكم النسج وغيره. قال زهير بن أبي سلمى يصف ماء مرت عليه الريح فأنشأت فيه غضونا:

مكلل بأصول النبت تنسجه ... ريحٌ خريقٌ لضاحي مائه حبكُ ٦٢

قال الفراء في قوله تعالى: ﴿والسماء ذات الحبك﴾ "الحبك تكسر كل شئ كالرملة إذا مرت عليها الريح الساكنة، والماء القائم إذا مرت به الريح" ٦٣. وفي حديث الدجال: "إن شعره حبك حبك" ٦٤. والسحاب يوصف بذلك، فإن الحبك فيه تجعد قطعاته مثل الموج المزبد المتراكم أو

٦١ لسان العرب (فهد) .

٦٢ ديوانه: ٤٦ (بشرح الأعلم) .

٦٣ لسان العرب: (حبك) ومعاني القرآن للفراء ٣: ٨٣ .

٦٤ انظر المسند ، لابن حنبل ، ولفظ الحديث فيه "إن رأس الدجال من ورائه حبك حبك ٤: ٢٠ وفي موضع آخر: "إن رأسه من بعده حبك حبك" ٥:٣٧٢ (المكتب الإسلامي، بيروت) .



كسبائر القطن. قال امرؤ القيس يصف القصور الشامخات المكللة بالسحب.

تلاعب أولاد الوعول رباعها ... دوين السماء في رؤوس المجادل

مكللة حمراء ذات أسرة ... لها حبك كأنها من وصائل ٦٥

أي مكللة بسحب حمراء ذات طرائق. وهذا وصف سحاب الشتاء من جهة لونه وقطعاته. قالت الخنساء تصف السحاب الشتوي:

لا حين الرياح بلائل ... نكب هوائجها صوارد

ينفين عن ليط السما ... ء ظلائلا والماء جامد

زرقا تطردها الريا ... ح كأنها خرق طرائد ٦٦

وأما ما قيل من أن المراد به السماء التي فيها النجوم إما لإحكامها أو لكونها مجلادة بالكواكب فلا يصح، فإن الحبك ههنا ليس بالمصدر، إنما هو جمع بمعنى الخطوط والتكسر والغضون فلا يكون وصفا لهذا السقف المكوكب لا من جهة إحكامه ولا من جهة نجومه.

[إنكم لفي قول مختلف] أي في أمر وقوع الدين، كما قال تعالى: ﴿عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون﴾ [سورة النبأ/١-٤]. وموقع الجملة تشنيع قولهم وليست جواب للقسم، فإنه قد سبق بعد القسم السابق فأغنى عن ذكره. وجملة التشنيع ربما تأتي بعد القسم، وجواب القسم يفهم ولا يذكر، مثلا قوله تعالى: ﴿ق والقرآن المجيد. بل عجبوا أن جاء هم منذر منهم فقال الكافرون: هذا شئ عجيب﴾ [سورة ق/١-٢]، أيضا: ﴿والسماء ذات

٦٥ ديوانه: ٩٦ .

٦٦ ديوان الخنساء: ٣٨ (بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) .

البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود قتل أصحاب الأخدود﴾ [سورة البروج/١-٤] وهذا كثير.

[يوفك عنه من افك] هذه جملة مستقلة وليست بصفة لقول مختلف. والمعنى أنه يصرف عن الإيقان بالدينونة من أصيب في بصيرته، فإن "الأفك" هو قلب الشئ ظهرا لبطن. ومنه "الإفك" للكذب، و"المأفوك" لفاقد البصيرة. وأنشد الليث.

مالي أراك عاجزا أفيكا

[قُتل الخراصون] "خرص النخل والكرم" ؛ حمن ما عليه من الثمر. "خرص في الحديث": قال ما لم يعلم. أي القائلون في أمر القيامة أقوالا مختلفة بمحض الظن، كما قال تعالى: ﴿بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها﴾ [سورة النمل/٦٦] ، وكما ذكر قولهم في القيامة: ﴿إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين﴾ [سورة الجاثية/٣٢].

[الذين هم في غمرة ساهون ] في غمرة: أي غفلة شديدة كما يقال: "في غطاء وعماية". وكل ذلك مستعمل في كلامهم. "ساهون" خبر بعد خبر. وفائدته بيان عدم انفكاك الغفلة حتى أنهم لا يشعرون بما ينبغي أن يشعروا به. وهذا ذكر حالتهم التي كانت أصل دائهم المذكور، أي هم منغمسون في الغفلة والشهوات، ولذلك لا يذكرون العاقبة. ومفاد الجملة التشنيع لشكهم الناشيء من كمال الجسارة وعدم المبالاة بالآخرة وبما جاء به المنذرون من ربهم، وذلك يظهر من سؤالهم الآتي.

[أيان يوم الدين ] هذا السؤال يتضمن الإنكار والاستعجال والاستهزاء. وكل ذلك من غاية العصيان كما جاء في سورة القيامة: ﴿بل



يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة﴾ [سورة القيامة/٥-٦] ولذلك أجابهم حسب سؤالهم.

[يوم هم على النار يفتنون] نصب "يوم" على الظرفية، أي يوم الدين يقع يوم هم يفتنون، واليوم بمعنى الوقت كما قال تعالى: ﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾ [سورة المدثر/٩]، أي وقتئذ. وقيل موضعه الرفع، إنما نصب لإضافته إلى غير المتمكن. وهذا وإن كان جائزا من جهة الإعراب ولكن لا يليق ههنا، فإن السؤال المتقدم إنما هو عن موقع يوم الدين لا عن نفس ذلك اليوم. نعم يمكن أن يكون الجواب حسبما فهم من سؤالهم كأنهم قالوا أيان هذا الدين، فقيل إنه يقع يوم كذا.

فتنه: امتحنه قال تعالى: ﴿وفتناك فتونا﴾ [سورة طه/٤٠] ومنه: "الفتنة": لكل ما يختبر به عقل الإنسان وعزمه من لذة أو ألم. ومنه "فتنته المرأة": دلهته، والشيطان: أغواه. وفتنت الذهب: أدخلته في النار لتنظر ما جودته. ومنه: دينار مفتون. وورق فتين: أي فضة محرقة. ويقال للحرة: فتين كأن حجارتها محرقة. وكل ذلك وجوه لمعنى واحد.

فقوله تعالى "يفتنون" يلمح أولا إلى معنى الإحراق، وثانيا إلى أن هذه النار مما فتنتم به في الدنيا من شهواتها وزخارفها التي أنستكم يوم الدين فصرتم في غمرتها ساهين كما يبين ما بعده. ولما كان سؤالهم على سبيل المكابرة والاستهزاء أجابهم بما يليق به.

[ذوقوا فتنتكم] أي ما فتنكم في الدنيا من شهواتها فهي الآن ظهرت عليكم بحقيقتها، وكنتم هناك في غمرة الغفلة فلم تحسوا بذوقها، فالآن فذوقوها. وموقع الجملة التفات. وليس ههنا حذف بل لكي يجعل الغيب مشهودا خاطبهم فكأن يوم الدين قد حضر، وكأنهم قد عرضوا على النار فخوطبوا بهذا القول.

## (٣)

## بيان وجه الاستشهاد بالرياح والسماء على الدينونة

قد تبين مما ذكرنا أن قوله تعالى: ﴿والذاريات ذروا فالحاملات وقراً فالجاريات يسراً فالمقسمات أمراً﴾ [سورة الذاريات/١-٤]، إشهاد بالرياح، وقوله تعالى: ﴿والسماء ذات الحبك﴾ [سورة الذاريات/٧]، إشهاد بالسماء الشتوية التي يكثر فيها الرعد والصاعقة. وكونها أظهر في الإنذار والتخويف يبين شناعة استمرارهم في غفلة وغرور، واختلاف وظنون كما جاء في قصة عاد: ﴿قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾ [سورة الأحقاف/٢٤]، فلم ينتبهوا من غفلتهم وقد جاءهم العذاب ورأوا آياته في السماء المقطعة السحب ذات الحبك.

واعلم أن كلا الإشهادين في الحقيقة إستشهاد بآيات الله الظاهرة وأوامره الجارية، تأتي بريح فتحمل السحاب الثقال فتسوقه إلى الأرض الجرز، وتحمل السفن الموقرة وتجري بها إلى المنافع. وربما تعصف فتذرو الرمال وتنقلب حاصبا فتمطر الحجارة، وربما تنقلب صرصرا فتأتي بالبرد والصواعق، وربما تصير طوفانا فتأتي بالمطر الشديد وتهيج البحر. وفي كل ذلك تقسيم الأمور، فإن من عجائب قدرة الله تعالى وحكمته وتسخيره الرياح أنها ربما تنفع بشدتها، وربما تهلك بلينتها كما سترى في قصة فرعون، بل الأمر الواحد يشتمل نعمة للمؤمنين ونقمة على الكافرين مفرقا بين الرحمة والعذاب، ومقسما لأمر الرب كفعل ذوي العقول.

ويشبه ذلك ما جاء في مزمور ١٤٧ ف (١٥-١٨):

"يرسل كلمته في الأرض سريعا جداً يجري قوله. الذي يغطي الثلج كالصوف ويذرى الصقيع كالرماد ويلقي جمده كفتات قدام برده من يقف. يرسل كلمته فيذيبها. يهب بريحه فتسيل المياه".



فمعنى الريح كلمة الرب وقوله، وهذا من ألطف العبارة فإن في العبرانية لفظة واحدة مشتركة بين الكلام والريح.

ومن أجمع الآيات فيه قوله تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل و النهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [سورة البقرة/١٦٤]، أي آيات على التوحيد والقدرة والربوبية والرحمة والحكمة والعدل.

وبالجملة ففي تصريف الرياح والسحب لنفعهما العام وضررهما المخصوص حسب مشيئته دلالة على أن أمور الخلق لا تجري باطلا وعبثا ونبه على ذلك بتقسيم الرياح وتفريقها في جريانها بين البر والفاجر، وأيضا على إحاطة أمره فإن كل شيء حتى هذه الرياح التي لا ترى أنها تعقل شيئا تجري بأمر الله تعالى حسب حكمته وعدله كما قال تعالى: ﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾ [سورة الفتح/٤]، وعلى غلبة حزبه. ففيه بشارة وإنذار كما صرح بذلك في سورة والصافات التي أقسم في أولها بجنوده الموكلة فقال تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ [الآيات/١٧١-١٧٣]، وفي كل ذلك دلالة واضحة على الدينونة وسيأتيك مزيد بيان لدلالة الرياح والسماء في تفسير قصص الأمم التي أهلكت بالرياح والصواعق.

## (٤)

## نظم هذه الآيات بعضها ببعض وبما بعدها

لما كان إشهاد الرياح جامعا للرحمة والنقمة كما مر وكما ذكرنا

في تفسير سورة المرسلات والقرآن قد أكثر من ذكر جانب النفع فيها، وربما ينبه على ما فيها من العذاب تنبيها على كونها مسخرة بأمر الرب الحكيم فأتبعه قولا يعم الرحمة والنقمة، وهو قوله تعالى: ﴿إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع﴾ [سورة الذاريات/٥-٦].

ولما كان الإشهاد بالسماء ذات الحبك غالبا فيه جانب الإنذار بل صورة هذه السماء هي صورة الزجر الشديد والإنذار أتبعه ذكر المستهزئين المستعجلين وعذابهم. ثم لما كان هذا ذكرا لأحد جانبي الوعد والدينونة حسن أن يذكر الجانب الثاني. وأيضا من أسلوب القرآن ضم الترغيب بالترهيب وبيان الضد بالضد وقد ذكر العصاة وبعض أوصافهم فحسن بعد هولاء ذكر أضدادهم بأوصافهم تعريضا بأن هؤلاء المستهزئين ليسوا كذلك كما صرح به في مواضع من القرآن، فقال عز من قائل حكيم:

إن المتقين في جنات وعيون (١٥) آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين (١٦) كانوا قليلا من الليل ما يهجعون (١٧) وبالأسحار هم يستغفرون (١٨) وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (١٩).

## (٥)
## تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (١٥-١٩)

[المتقين] صفة جامعة فارقة كما مر بيانها في تفسير سورة البقرة، وموقعها ههنا يشير إلى اتصافهم بضد ما ذكر في الجملة السابقة من أوصاف المنكرين.

[في جنات وعيون] عبارة عن الفوز والسرور، أي دائمون في النعمة.

[آخذين] حال، وهو أحسن لما فيه دلالة على استمرار الإنعام، فلم



يقل إنهم أخذوا ما آتاهم ليعلم أن ما أعطوا يبقى معهم، لأن الجملة السابقة قد دلت على الاستمرار، فالمعنى: إنهم دائمون في جنات وعيون وعطايا من ربهم

[إنهم كانوا] وصف وضع في محل الدليل وبذلك أيضا دل على أن المنكرين على خلاف هذه الأوصاف كما جاء في القرآن كثيرا. وموقع الجملة شبيه بالالتفات فيشبه ما مر من قوله تعالى: ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ [سورة الذاريات/١٤]، كأن يوم القيامة قد حضر، فيوصفون بما عملوا في الدنيا.

[محسنين] عام، وأظهر في الصلاة والزكاة، لكونهما أولى وأهم، ولما صرح بكونهما علامة فارقة، ولما بين ذلك بما أتبع من أوصافهم من قلة الهجوع والجود.

[كانوا قليلا من الليل ما يهجعون] الهجوع هو النوم، أي يشتغلون في الليل بالصلاة والذكر، كما قال تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون﴾ [سورة السجدة/١٦]، وكما قال تعالى: ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا﴾ [سورة المزمل/١-٢]، والجملة لم تعطف لأنها بيان لما ذكر من كونهم محسنين. وفي تأليف الجملة وجوه كلها راجع إلى معنى واحد أي إنهم كانوا قليلا هجوعهم، أو ما يهجعون فيه من الليل، أو كانوا يهجعون قليلا من الليل. وأما كانوا قليلين وإنهم لا يهجعون من الليل، كما ذكره الرازي، فبعيد جدا.

[وبالأسحار] السحر قبيل الإسفار وهو أولى الأوقات بالاستغفار كما جاء في وصف المتقين: ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾ [سورة آل عمران/١٧]، وجاء تصريح ذلك في صحيح الخبر. وقد بينا سبب ذلك في تفسير سورة آل عمران.

وذهب الحسن إلى جعل الواو دليلا على اتصال الوصفين فإنه قال: "مدوا في الصلاة ونشطوا حتى كان الاستغفار بسحر" [٦٨] وليس ذلك بظاهر المعنى ولكنه إشارة غير بعيدة والله أعلم.

[المحروم] موقعه بعد (السائل) يدل على معناه: أي من لا يسأل الناس مع فقره. وعن قتادة هو المسكين الذي لا يسأل. [٦٩] وعن الزهري هو المتعفف [٧٠] لعلهما نظرا إلى قوله تعالى: ﴿للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم، لا يسألون الناس إلحافا﴾ [سورة البقرة/٢٧٣].

## (٦)

## نظم هذه الآيات ودلالتها وموقعها مما قبلها و مما بعدها

جمع بين الكافرين والمؤمنين على سبيل التقابل، ومن الإيجاز أن دل بما ذكر على ما لم يذكر. فإذ وصف المنكرين بأنهم في غمرة الغفلة علمنا أن المتقين على بصيرة ويقين من لقاء ربهم، ونبه على ذلك بما سماهم المتقين، فإن التقوى هي أصل البصيرة كما هو مبسوط في موضعه. وكذلك إذ وصف المتقين بالإحسان والصلاة والزكاة علمنا أن المنكرين اشحاء قاسية القلوب كما ذكر وصفهم في قوله تعالى: ﴿قالوا لم نك من المصلين و لم نك نطعم المسكين﴾ [سورة المدثر/٤٣-٤٤].

---

٦٨ جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري) ٢٦: ١٢٢-١٢٣ .

٦٩ المرجع السابق ٢٦: ١٢٥ .

٧٠ المرجع السابق .



وهذه الجملة بما قبلها من قوله تعالى: "إنكم لفي قول مختلف" جاء معترضة بعد إيراد دلالة على الجزاء فبدأ بتشنيع أمر المنكرين ثم أتبعه ذكر مقابله، فبذلك أعقب الدليل الترهيب والترغيب. ثم بعد ذلك أخذ مرة أخرى في إثبات الجزاء فإنه عمود الكلام، فلذلك وصل بالواو وأراد أن ينبه على أن ما سبق من القسم ففيه دلائل وآيات، فقال عز من قائل حكيم:

وفي الأرض آيات للموقنين (٢٠) وفي أنفسكم أفلا تبصرون (٢١) وفي السماء رزقكم وما توعدون (٢٢) فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون (٢٣)

## (٧)

## تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٢٠-٢٣)

[وفي الأرض] الجملة معطوفة على ما فهم من الأقسام السابقة، كأنه قيل إن في تصريف الرياح والسحاب لآيات على المعاد وهكذا في الأرض وفي أنفسكم. وقوله (للموقنين) هذا من نمط قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ [سورة البقرة/٢]، وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [سورة ق/٣٧]، أيضا: ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ [سورة ق/٨]، وأيضا: ﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾ [سورة هود/١٠٣]، وأيضا: ﴿آيات لقوم يعقلون﴾ [سورة الجاثية/٥، والرعد/٤، والنحل/١٢، والروم/٢٤]، وهذا كثير جدا، أي إنما هي آية لمن ينتفع بها كما يقال: "قد أسفر الصبح لذي عينين"، فأمثال ذلك فيها نوعان من الفوائد:

الأول: إن الدلائل ليس فيها الإكراه، فيكون نافعا لكل الناس، فإن

لم ينتفع بها الكافرون فإنما هو من قبلهم، ولا نقص في ظهور الدلائل.

والثاني: التنبيه على الشرط المناسب للانتفاع، ويجب التدبر في هذه المناسبات، فلنذكر ما يليق بهذا المقام.

فاعلم أن قيد "الموقنين" يدل على أن الآيات إنما ينتفع بها من يستدل بها وذلك بأن الاستدلال مبنى على الإيقان بأمرين:

١- الأول: بما يبني عليه الدليل من المقدمات المسلمة، أو الأوليات.

٢- والثاني: بلزوم الإنتاج. فالذين لا يوقنون قسمان: إما هم أهل السفسطة الذين قد أنكروا بالأصول الأولية، فكيف بالأدلة وإما هم المقلدون والفجار، فهولاء ربما لا ينكرون بالأوليات ولكن ينكرون بما يلزمها ويستنتج منها، وذلك بمحض المكابرة. والقرآن كثيرا ما يبين هذا التناقض منهم بمثل قوله: ﴿فأنى تؤفكون﴾ [سورة الأنعام/٩٥، ويونس/٢٤، وفاطر/٣، وغافر/٦٢] ﴿فأنى تسحرون﴾ [سورة المؤمنون/٨٩].

وبالجملة فنبه على أول شرط لما يكتسبه الإنسان من العلم بطريق الاستدلال، فمن خلا عنه فهو كالبهائم بل أضل منها وخرج ممن يخاطب. وقد أشار فيما بعد إلى ما هو أصل اليقين كما سيأتيك عن قريب.

هذا، ولم يذكر "للموقنين" مفعولا به ليعم كل ما يوقن به. و أوله وأساسه التوحيد، ثم القيامة، ثم الرسالة.

وليس المراد به الإيقان بمحض المشهود، فإن ذلك ما يستوي فيه المؤمن والكافر بل الإنسان والبهائم، فالمراد به الإيقان بالاستدلال بالآيات وذلك هو كمال رسوخ العقل كما مر في تفسير قوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ [سورة البقرة/٣]، ومع العموم يدل موقع الكلام على أن



أول النظر ههنا إلى الإيقان بالمعاد وربما جاء به التصريح كما في قوله تعالى: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ [سورة البقرة/٤].

[أفلا تبصرون] استفهام استنكار، فإن آيات النفس أعظم الآيات وأقربها وأبينها

قوله تعالى: "وفي الأرض آيات" إلى قوله "وما توعدون" جامع لما لا يحصى من الآيات على التوحيد والربوبية والحكمة كما قال تعالى: ﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ [سورة يوسف/١٠٥]، وقد أكثر القرآن من ذكر هذه الآيات إجمالا وتفصيلا، فلا حاجة إلى ذكرها ههنا، وسيأتيك بعضها في هذه السورة. ومقتضى المقام أن يراد بها ما يدل على المعاد، وكل آية من آيات الربوبية والقدرة والحكمة والرحمة تدل على المعاد كما هو مذكور في موضعه.

واعلم أن نظم الكلام ههنا جاء على أسلوب خاص من الإيجاز وهو الاكتفاء بما ذكر في أحد القرينين عن ذكره في الآخر، فذكر الآيات مع الأرض أغنى عن ذكرها مع السماء وهكذا ذكر الرزق والموعود مع السماء أغنى عن ذكرهما مع الأرض. وقد جاء في غير هذا الموضع التصريح بكون الآيات في السماء وهكذا جاء التصريح كثيرا بكون الرزق في الأرض. وأما كون ما يوعدون في الأرض فكما قال تعالى في أمر القيامة: ﴿ثقلت في السماوات والأرض﴾ [سورة الأعراف/١٨٧]، فكأنهما قد أثقلتا بحملها، وكأنهما منتظران أمر الرب بوضعها.

[فورب السماء والأرض] هذا القسم يتضمن الدليل على المعاد وذلك ظاهر مما ذكر من آيات الأرض والسماء. ثم أشهد بربهما، ولولا ذلك لما جاء بفاء التعقيب. فهذه الجملة في غاية الاتصال بما قبلها، ثم في كلمة "الرب" إشارة إلى الاستدلال وهو أن كل آية في الأرض والسماء

والنفس إنما هي آيات على الربوبية ودلائل المعاد كلها مبنية عليها. وسيأتيك بعض البيان لذلك في الفصل الثاني.

[إنه لحق] المقسم عليه ههنا هو المقسم عليه في أول السورة وهو قوله تعالى: ﴿إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع﴾ [سورة الذاريات/٥-٦]، وقد مر أيضا ذكر "ما توعدون" آنفا فاكتفى ههنا بالضمير، كأنه قيل فورب السماء والأرض إن بعثكم وجزاءكم حق لا ريب فيه.

[مثل ما أنكم تنطقون] نصب "مثل" على كونه حالا من الضمير في (إنه)، وعاملها حسب اصطلاحهم شبه الفعل أي "لحق" كقولك زيد حسن ضاحكا، أي ما توعدون من البعث والرجوع إلى ربكم والجزاء حسب أعمالكم فهو حق لا مجال فيه للشك وحاله يشبه حال نطقكم.

ولا خلاف في هذا التأويل بين السلف ولكنهم اختلفوا في محله، فمن الذين ينصبونه من يظنه مرفوعا في المحل ولكنه ينصبه لإضافته إلى غير المتمكن مثل "يومئذ". وأما حمزة والكسائي وأبو بكر فقرؤوه بالرفع، وكل ذلك راجع إلى معنى واحد. وموقع هذا التمثيل الاستدلال بطريق الأولى كما سيأتيك بيانه في الفصل التاسع إن شاء الله تعالى.

## (٨)

## جملة الكلام في بيان وجه الاستدلال بهذه الآيات على وقوع الدينونة

اعلم أن هذه الآيات الأربع جامعة لكل ما في الأرض والسماء، والنفس من الشواهد وذلك بأن الله تعالى جعل في أنفسنا وفي الأرض والسماء وما بينهما من عظائم الخلق وعجائب الصنع وتقدير بعضها لبعض وتيسيرها لمصالحها وتدبيرها لمصالح أخرى ما فيه دلائل واضحة على التوحيد والربوبية من جهة اتصاف الرب تعالى بكمال الملك والقدرة



والعلم والحكمة والعدل و الرحمة، وفي كل ذلك دلالة على الدينونة فأول الاستدلال إنما هو على صفات الرب تعالى الدالة على التوحيد ثم يستدل به على الدينونة. كما بينها القرآن في مواضع وقد ذكرناها في كتاب الحجج. فأشار بهذه الجملة إلى دلائل الربوبية عامة وإلى دلائل الدينونة خاصة، ونبه على ذلك بقوله: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ [سورة الذاريات/٢٢]، فإن الرب الذي يرزقكم من السماء والأرض لم يخلقكم عبثا ولن يترككم سدى كما قال تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [سورة المؤمنون/١١٥].

ثم بين ذلك بما أتبعه من قوله: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ [سورة الذاريات/٢٣]، فاستدل على الدينونة بكونه رب السماء والأرض وهما مشتملان على ما لا تحصى من الآيات في الآفاق والأنفس الدالة على الربوبية وعلى الدينونة. وهذا الذي ذكرنا جاء بأوضح بيان في موضع آخر، والقرآن يفسر بعضه بعضا، فقال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ [سورة حم السجدة/٥٣]، أي المعاد، كما بينه فيما بعد فقال: ﴿أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد﴾ [سورة حم السجدة/٥٣]، أي في كونه ربا شهيدا على كل شئ دليل كاف على المعاد، كما بينه فيما بعد فقال: ﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شئ محيط﴾ [سورة حم السجدة/٥٤]. إحاطته بالعلم والقدرة والملك والتدبير والحكمة والرحمة تستلزم الجزاء.

وهذا جملة الكلام في وجه الاستدلال وهذه الأدلة مفصلة في مواضعها من القرآن، فلا نشتغل ههنا بتفصيلها ولكن نبين ببعض البسط ما يخص بهذا المقام من الاستدلال على المعاد، فنقول وبالله التوفيق.

## (٩)
## بيان الاستدلال على المعاد بالنطق الإنساني

لا يخفى أن المفهوم من قوله تعالى "مثل ما أنكم تنطقون" مع ما قبله: إن بعثكم وجزاءكم حق أي واقع ولا ريب فيه مثل ما أنكم تنطقون، فلا تشكون فيه. وهذا القدر في غاية الظهور من الكلام. ثم في هذا التمثيل من الحكمة ما يحتاج إلى التدبر، وقد نبه على ذلك بما اختار مثال النطق، فلم يقل مثل ما أنكم تنظرون أو تسمعون أو تأكلون أو تشربون أو غير ذلك من الأفعال الظاهرة. فإذا تفكرت في حكمة اختيار هذا المثال هديت إلى أمرين عظيمين:

الأول: هو كون النطق أولى باليقين من سائر أطوار النفس.

والثاني: كونه متضمنا لما يستدل به على المعاد، كما سيأتيك بيانه عن قريب. وستجد كلا الأمرين من بوالغ الحكمة ما يربي العقول ويشفي الصدور

أما الأول، وهو كون النطق أولى باليقين، فمن ثلاث جهات:

الأولى: أن النطق أقرب إلى النفس من سائر أطوارها وذلك بأن النفس تنتبه على كل شئ بوساطة الفكر، وأما الفكر فليس بينه وبين النفس واسطة. والفكر هو النطق الحقيقي ولذلك سمي العقل نفسا ناطقة، والنطق المسموع إنما هو ظهور ذلك النطق الحقيقي. فعلم النفس بنطقها الحقيقي هو أبده البديهيات وأولى باليقين.

والثانية: أن النطق أرسخ في النفس وذلك بأنه داخل فطرة الإنسان وخاصته. ولذلك عرفوا الإنسان بالحي الناطق، وقد عرفت العرب ذلك. قال المرقش الأكبر:



هل بالدِّيار أن تجيب صمم — لو كان حيا ناطقا كلم [٧١]

والثالثة: أنه ليس في أطوار النفس ما يساوي النطق في كثرة الشهادات المتواطئة. ولا يخفى أن تطابق الشهادات على شئ أمر زائد على كونه بديهيا أو فطريا، واليقين إنما يتم بكثرة الشهادات. فإذا نظرت إلى النطق من هذه الجهة وجدته أوفر نصيبا من غيره، وذلك بأن الناطق أولا يفكر وهو النطق الحقيقي، ثم يرى فكره يجري على لسانه مطابقا لما تكلم به. ثم هذه الشهادات تستكثر بأن في كل كلمة بل كل حرف شهادة على هذه المطابقات، فلا شئ كالنطق دليلا على وجود النفس. ومن ههنا حسن اختيار فعلية النطق، فلم يقل مثل نطقكم بل قال تعالى: ﴿مثل ما أنكم تنطقون﴾. وتبين مما قدمنا أن اليقين بكل شئ فرع على اليقين بالنطق، فهو أصل اليقينيات والاستدلالات.

وأما الأمر الثاني وهو كون هذا المثال متضمنا للدليل على المعاد، فلا يخفى أن التمثيل ربما يكون محض دعوى كما تجد كثيرا في كلام الشعراء وربما يكون دليلا. وذلك إذا علم من نفس الكلام أو العقل أن بين المثل وبين ما ضرب له المثل أمرا جامعا يستلزم اشتراكهما في الحكم، كما تقول في مسكر أنه حرام مثل الخمر، فإنك بهذا التمثيل قد دللت على علة الحرمة، وهذا الجامع يسمى مناط الحكم. ثم إذا كان مناط الحكم فيما ضرب له المثل أقوى مما هو في المثل كان إثبات الحكم في الأول بطريق الأولى ويسمى قياس الأولى، كما ترى في قوله تعالى: ﴿مثل نوره كمشكوة فيها مصباح﴾ الآية [سورة النور/٣٥].

فعلى هذا تمثيل النطق ههنا ليس دعوى محضا ولكنه دليل استدل به

---

٧١ المفضليات: ٢٣٧ .

على ثبوت المعاد. فإنك إذا تأملت نظم الكلام اتضح لك وجوه من الاشتراك والمماثلة بين النطق الإنساني وقضية المعاد. والآن نذكر هذه الوجوه وبالله التوفيق.

الوجه الأول: ما يدل عليه نفس القسم ههنا، فإن القسم هو الإشهاد كما بيناه في "كتاب الإمعان" ٧٢ فالإشهاد بكونه تعالى رب السماء والأرض – وقد سبق أنهما ملأيان من آيات الربوبية الدالة على المعاد– إشهاد بهما وبآيات فيهما، فهي تشهد بأنكم مربون ومجازون وهذا النطق منها واضح لأولى النهى، كما قال تعالى: ﴿أنطقنا الله الذي أنطق كل شئ﴾ [سورة فصلت/٢١]، وقال تعالى: ﴿وإن من شئ إلا يسبح بحمده﴾ [سورة الإسراء/٤٤]. فكأنه قيل كما أنكم تنطقون فكذلك هذه تنطق بأن المعاد إلى الرب تعالى حق لا شك فيه.

والوجه الثاني: يد ل عليه التدبر في أمر النطق، فإن الله تعالى جعل الإنسان قادرا على أن يأتي به أحسن وأبين. وذلك من كماله واكبر نعم الرب، كما قال تعالى: ﴿خلق الإنسان. علمه البيان﴾ [سورة الرحمن/٣-٤].

فإذا تأمل الإنسان في هذه القدرة منه لم يمكنه الإنكار بأن الرب تعالى قادر على إيجاد الخلق بعد فنائه فإن الخلق منه تعالى إنما هو بمجرد نطقه، فإن الرب تعالى يخلق ما يشاء بكلمة منه من غير احتياج إلى مادة وآلة، كما قال تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه ان نقول له كن فيكون﴾ [سورة النحل/٤٠].

وإذ ليس الخلق إلا كلمة منه وقد خلق السماء والأرض بكلمة منه، وإذا شاء أعاده بكلمة بل هو على إعادته مرة أخرى أقدر،كما قال

٧٢ عني بذلك تأليفه: إمعان في أقسام القرآن .



تعالى:﴿وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ [سورة الروم/٢٧]. وإذا كان ذلك كذلك فهو على إعادة الإنسان أقدر، كما قال تعالى: ﴿أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ [سورة يس/٨١]، أي يعيدهم بعد إما تتهم. فإن سياق الكلام في إثبات المعاد وقد صرح بذلك في مواضع أخر. فإن نفس خلق السماوات والأرض دليل على قدرته على إعادة الإنسان، وقد صرح بذلك في آيات أوردت في إثبات المعاد بناء على محض كمال صفة الخلق والعلم كما تجد فيما أتبعه ههنا، فقال تعالى: ﴿بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحن الذي بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون﴾ [سورة يس/٨١-٨٣]. وهكذا قال تعالى في المعاد: ﴿إنا كل شئ خلقناه بقدر وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ [سورة القمر/٤٩-٥٠].

وبالجملة ففي أنكم تنطقون لكم شهادة بينة على أن الرب تعالى أكبر قدرة على بعثكم منكم على إعادة ما نطقتم به. ثم هو أهون عليه لما أنكم في نطقكم محتاجون إلى أسباب جعلها الله لكم، وربما لا تقدرون على بعضها فتعجزون عنه، وربما تنسون ما نطقتم به فلا تقدرون على إعادته كلا أو بعضا. وأما الرب تعالى فقدرته على النشأة الآخرة كقدرته على الأولى. وقد صرح بما ذكرنا في مواضع مثلا: ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه﴾ [سورة القيامة/٣-٤]، و أيضا: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلو لا تذكرون﴾ [سورة الواقعة/٦٢]،و أيضا: ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ [سورة يس/٧٨-٧٩]، وهذا كثير. وهذا الاستدلال لإثبات المعاد على من أنكره لمحض الاستبعاد، فجوابهم إبطال ذلك

والوجه الثالث: أن النطق يرجع إلى النـــاطق وإلا لكـــان أصـــم والأصم لابد أن يكون أخرس. وإذ كان أمر النطق هكذا فالخلق منه تعالى أكبر وأعظم مثلا من نطق الإنسان كما مر، فلابد من رجوع الخلـــق إلى الخالق. وذلك لكمال ملكه، فإن الخلق قائم بأمره ولا يخرج عـــن ملكـــه وقدرته وعلمه وإلى ذلك إشارة في قوله تعالى: ﴿أو ليس الـــذي خلـــق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. فسبحن الذي بيده ملكـــوت كل شئ وإليه ترجعون﴾ [سورة يس/٨١-٨٣]. وعلى هذا فكيف يمكن أن يخلق الرب تعالى ولا يرجع إليه كله، أ ينطق الرب ولا يسمع، ويخلـــق ولا يرى، أو يأتي بالخلق من العدم ثم يفوت من قبـــضته، أو يـــدبره ثم لا يملك منه شيئا.

وهذا الاستدلال لإفحام من يستبعد المعاد من جهة رجوع المعدوم كما جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿أ إذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد قـــد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾ [ســـورة ق/٣-٤]، وأيضا: ﴿أ إذا متنا وكنا ترابا وعظاماأإنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين. قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل أفلا تذكرون. قل من رب الـــسماوات الـــسبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله قل أفلا تتقون. قل من بيده ملكـــوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل فـــأنى تسحرون﴾ [سورة المؤمنون/٨٢-٨٩]، فانظر كيف أكد على كون الخلق في ملكه بأن كله له وأنه ربه وأن ملكوته بيده وأنه مجيره وحفيظه.

وهذا الاستدلال بالملك علـــى إعـــادتهم كـــثير ولا حاجـــة إلى الاستقصاء.



والوجه الرابع: وهو الاستدلال بصفة الربوبية ومماثلتها بالنطق مع زيادة العدل وهو أصل الاستدلال. وقد جاء في القرآن كثيرا على وجـــوه والعدل داخل في الربوبية، فإن السماء والأرض قيامهما بالعدل كما قال: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾ [سورة المؤمنون/٧١]، فبعد ذكر السماء والأرض وآياهما استدل بالربوبية علـــى المعاد وذكر مثل النطق، فكأنه قيل إن كل ما تفعلون وتعملون فبدايته من تدبير ونطق نفسي منكم وبهذا تمتازون من أشياء غير ذات نفس ناطقة.

ثم الرب تعالى حكيم عادل، فكل ما ترون في السماوات والأرض من عجائب الصنع والتقدير فهو دليل على تدبر وأمر من حكيم مدبر آمر ناه وذلك يدل دلالة ظاهرة على تقدير، وغاية، وحكمة، ورحمة. فـــذلك دليل على أنكم لم تخلقوا عبثا ولابد من إيفاء كل ذي عمل حقه ليفـــرق بين المحسن والمسيء.

وقد صرح بذلك في كثير من المواضع، مثلا قوله تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [سورة المؤمنون/١١٥]، وقوله تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمـــون﴾ [ســـورة القلم/٣٥-٣٦]، وقوله تعالى: ﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ [سورة يونس/٤]، وقوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويـــل للـــذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفـــسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ [سورة ص/٢٧-٢٨].

وهذا النمط كثير في القرآن وعلى وجوه أصلها أن الحكمة والرحمة والعدل كل ذلك يستلزم المعاد. وبالجملة فكأنه قيل كما تنطقون عن فكر ومقصود فكذلك خلق السماء والأرض والنفوس إنما هو لغاية يؤول إليها،

بل هذا أثبت وأظهر لكون الرب متصفا بكمال الحكمة والعـــدل. وممـــا ذكرنا تبين أن كل هذه الأدلة فيها الاستدلال بطريـــق الأولى.هـــذا، ولا يحيط بمعاني كلامه إلا هو.

(١٠)

### بيان نظم هذه الآيات في نفسها وبالسابق واللاحق:

مما تقدم يتبين ما في هذا القول الجامع من رعاية حسن الترتيـــب وذكر الأقرب فالأقرب. ففي قوله "وفي الأرض آيات" إلى قولـــه "ومـــا توعدون" ذكر الأرض، ثم النفس ثم السماء ؛ فالنفس متوسطة بينهما ولها جانبان إليهما. ونبه على ما في هذه الثلاث من الآيات، ثم في قوله تعالى: "فورب السماء والأرض إنه لحق" ترقي إلى الدليل الجامع الأصلي وهـــو الاستدلال بالربوبية.

ثم بقوله "مثل ما أنكم تنطقون" أكد ذلك بتمثيل مأخوذ من صفة النفس التي هي مرآة ما في السماء والأرض، فأشار به إلى ما تقدم من قوله تعالى: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون". وكذلك ضرب المثل بـــالنطق وهـــو أصل اليقين والاستدلال فوجهك إلى قوله "آيات للموقنين".

فهذا نظم هذه الآيات في نفسها، وأما بالسابق واللاحق فقد مر أن هذه الجملة أعني "وفي الأرض آيات للموقنين" إلى قوله تعالى: "مثل مـــا أنكم تنطقون" معطوفة على ما بدأ به السورة من الـــدلائل. فمـــن أول السورة إلى آخر هذه الجملة استدلال بأمور الفطـــرة، فأشـــهد الريـــاح والسحاب والأرض والسماء والنفس، ثم أتبعها ذكر الحوادث. ونظير هذا النمط ترى في سورة الشمس كما بيناه هنالك وذلك حسب ما تجد كثيرا في أسلوب القرآن من تشييد ما في الفطرة بما في الوقائع التاريخية. فعلـــى



هذا حسن أن يذكر من القصص المشهورة ما يمثل لهم أمثلة الدينونة الواقعة لينذرهم بها وليكون ذلك آية ودليلا على الدينونة الكبرى كما قال تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾ [سورة هود/١٠٢-١٠٣].

هذا، ثم لرعاية حسن مواقع الكلام اختار من الوقائع ما يناســـب ويمثل بالخصوص ما أقسم به في أول السورة من الريح والسحاب، ليكون القسم من براعة الاستهلال كما ستعرف بعد تمام هذه القصص، فقال عز من قائل حكيم

﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين (٢٤) إذ دخلوا عليـــه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون (٢٥) فراغ إلى أهله فجآء بعجل سمين (٢٦) فقربه إليهم قال ألا تأكلون (٢٧) فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم (٢٨) فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجها وقالـــت عجوز عقيم (٢٩) قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم (٣٠) قال فما خطبكم أيها المرسلون (٣١) قالوا إنا أرسلنا إلى قـــوم مجرمين (٣٢) لنرسل عليهم حجارة من طين (٣٣) مسومة عند ربك للمـــسرفين (٣٤) فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيـــت مـــن المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (٣٧)﴾ .

(١١)

### تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٢٤-٣٧)

قد مر ذكر القصة في سورة هود ولكن نبين ههنا بعض ما يخـــص بهذا المقام.

[المكرمين] يدل على أن إكرام الضيف بالبشاشة والترحيب أول ما يجب على المضيف، وعلى أن إبراهيم كان كريما سمحا.

[قوم منكرون] هذا كلام إبراهيم عليه السلام في نفسه، فإنهم كانوا في زي الصلحاء وهم في ذلك الزمان شرذمة قليلة وكانوا من أصحاب إبراهيم ورجاله

[فراغ إلى أهله] يدل على حسن خلق إبراهيم وكرمه، فإن الكريم يخفي عن ضيفه الاهتمام لضيافته لكيلا يثقل عليه، وهذا أبعد من المن وأدخل في باب إسرار العطاء

[ألا تأكلون] أي بعد ما قرب الطعام إليهم لم يأكلوه، فدعاهم إليه بالرفق.

[فأوجس منهم خيفة] "أوجس" أحس في نفسه ويستعمل خاصة للخوف. "خيفة": أي خوفا يسيرا، وذلك بأنهم أصروا على الامتناع من الأكل، فعظموا في نفسه إجلالا وازدادت النكارة، كما جاء في سورة هود: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾ [الآية/٧٠].

[بشّروه] أي جهرا حتى سمعت سارة عليها السلام، فإنها كانت قريبة كما جاء في سورة هود ﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشّرناها بإسحاق﴾ [الآية/٧١]. ولما كانت البشارة إليها عرضا لم تنسب إلى الملائكة، فإنهم لم يكلموها أولا.

[عليم] يدل على أن البشارة بالولد لا تتم إن لم تكن البشارة بصلاحه، واكتفى بالعلم لكونه منبعا لصفات الخير والصلاح.

[فأقبلت] بعد ما سمعت البشارة توجهت وأقدمت على إظهار ما في قلبها من التعجب كما يبينه ما بعده.

[في صرّة] أي تقبض واستنكار. من "صر الفرس أذنيه: نصبهما. وهذا لما سمعت من الأمر العجيب.



[فصكت وجهها] أي ضربت جبهتها بيد باسطة وهو تصوير لاستعجاب النساء واستنكارهن كما جاء في سورة هود: ﴿قالت يويلتى ءألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب﴾ [الآية/٧٢].

[حجارة من طين] أي حصباء، ويقال لها "سجيل" معرب من (سنك كل) كما جاء في ذكر هذه القصة في سورة هود: ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾ [الآية/٨٢]، فبين ههنا معنى "سجيل"،والقرآن يفسر بعضه بعضا

[مسومةً] صفة للحجارة، أو حال. أما معنى المسومة فقال الأخفش في قوله تعالى "مسومين":

"معلمين ويكون مرسلين من قولك سوم فيها الخيل أي أرسلها"٧٣.

قال أبو زيد: "الخيل المسومة: المرسلة وعليها ركبانها، وهو من قولك سومت فلانا إذا خليته، وسومه أي وما يريد" ٧٤.

فإن كان من العلامة فمعنى "مسومة" متاحة مقدرة، كأن على كل منها كتابة من الرب فلا تصيب إلا من كتبت له. وإن كان من التخلية فإنها معدة عند الرب للمسرفين. ويناسب ذلك ما جاء في سورة هود: ﴿من سجيل منضود. مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ [الآيتان/٨٢-٨٣]، ومآل التأويلين واحد.

[للمسرفين] الإسراف هو التجاوز عن الحد وهو لفظ يعم كل ذنب صغير أو كبير كما قال تعالى: ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على

---

٧٣ انظر اللسان (سوم) .

٧٤ المرجع السابق .

أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا [سورة الزمر/٥٣]، والعام يتعين حسب القرينة. فههنا أريد به على طريق الكناية ما كان قوم لوط يرتكبون من المنكر.

قوله تعالى: ﴿فأخرجنا... العذاب الأليم﴾ [الآيات/٣٥-٣٧] هذا ليس من قول الملائكة، وإنما هو من قول الله تعالى إخبارا عما فعل بهم، فإن الملائكة إنما أخرجوا لوطا والذين آمنوا معه بعد ذهابهم من عند إبراهيم عليه السلام. وقد دل على أنه من كلام الله تعالى بقوله "فيها"، كما سنذكره.

[فيها] لم يذكر المرجع وهو أرض قوم لوط وقريتهم المؤتفكة. والأرض من الأسماء التي يرجع إليها الضمير من غير ذكرها لدلالة القرينة. والقرينة أنه من كلام الله تعالى، فهو متصل بما سبق من قوله تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ [الآية/٢٠] وقد جاء بالقصة بيانا لآيات الأرض. وقد ذكرنا فيما سبق أن العرب كانوا قد تبين لهم آيات هذه القرى وقد صرح بذلك فيما أتبعه من قوله: ﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ [الآية/٣٧]، يعني آية على الدينونة.

[من المسلمين] لم يكن هناك إلا بيت واحد من المسلمين وهو بيت لوط عليه السلام وفيه من هو مؤمن وقد أخرجهم الله ونجاهم، ولكن امرأة لوط لم تكن من هؤلاء المؤمنين وإنما كانت داخلة في جماعتهم بحسب الظاهر، فلذلك اختار اسم المسلمين في ذكر البيت.

## (١٢)

## نظم هذه القصة بما قبلها وبما بعدها

في الجملة السابقة ذكر أن في الأرض آيات للموقنين ولا يخفى أن في الأرض آيات على رحمة الرب بما يرزق به العباد، وأيضا فيها آيات على



نقمة الرب بما ترك فيها من آثار عذابه المجرمين. وكذلك ذكر فيما سبق أن في السماء رزقكم وما توعدون، ففي هذه قصة إبراهيم عليه السلام المشتملة على قصة لوط عليه السلام مثل لهم الرحمة والبشارة والنقمة والإنذار. فهذه القصة منظومة في سلك ما سبق من قوله تعالى "وفي الأرض آيات" وقوله تعالى "وفي السماء رزقكم وما توعدون" ودل على ذلك بما ختم به هذه الجملة فقال تعالى "وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم"، وبما وصل هذه الجملة بما سبق بقوله "فيها" كما قدمنا في الفصل السابق، وبما اختار من أسلوب العطف فيما ألحق بها من القصص الأخر فقال "وفي موسى" الآية، فدل على أن قصة إبراهيم وضيفه وما أنزل على قوم لوط لآية لكم.

ثم هذه القصة تمثيل لما بدأ به السورة كما سيأتيك بيانه وكذلك ما بعدها من القصص، فأتبعها أمثالها فقال عز من قائل حكيم:

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين (٣٨) فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون (٣٩) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم (٤٠) وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم (٤١) ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم (٤٢) وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين (٤٣) فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون (٤٤) فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين (٤٥) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين (٤٦)﴾.

## (١٣)

## تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٣٨-٤٦)

[في موسى] أي كذلك في قصة موسى عليه السلام و وقائعه بفرعون آية على انتقام الله تعالى من المجرمين ونصرته للمؤمنين كما جاء في سورة الشعراء: ﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين، إن في ذلك

لآية﴾ [الآيات/٦٥-٦٧].

[بسلطان مبين] أي بقوة وغلبة ظاهرة. وكلمة سلطان جامعة لما أعطاه الله تعالى من الآيات الواضحة على رسالته، ولما أعطاه بها من الغلبة والظفر والهيبة، وهكذا وصفه بمبين يوافق معناها الجامع.

ويبين ما ذكرنا ما جاء في قوله تعالى: ﴿قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون. فلما جاء هم موسى بآياتنا بينات﴾ الآية [سورة القصص/٣٥-٣٦]، وأيضا: ﴿فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾ [سورة الشعراء/١٥-١٦]، وبعد ذلك: ﴿قال أولو جئتك بشيء مبين. قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾ [سورة الشعراء/٣٠-٣١].

[فتولّى بركنه] أي أعرض إنكارا واستكبارا. فالركن ههنا هو المنكب، والباء للتعدية كما قال تعالى: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه﴾ [سورة الإسراء/٨٣].

ويشبه هذا المعنى قوله تعالى في قصة فرعون وقومه: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا﴾ [سورة النمل/١٣-١٤]، فلم يكن إنكارهم من شك، فإن الآية كانت مبصرة ولكنهم استكبروا وجحدوا بها ظلما وعلوا.

[مليم] "ألام": جاء بما يلام عليه، أي ههنا ظهر خسرانه وصار بحيث يلومه كل من علم به.

[الريح العقيم] أي الريح التي لا تأتي بمطر ونفع وهذا كما سميت الرياح "لواقح" إذا درت" بالمطر كما قال تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه﴾ [سورة الحجر/٢٢]، والمراد به الريح الباردة كما قال تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات﴾



[سورة فصلت/١٦]، وسيأتيك بيان ذلك.

[كالرميم] أي البالي المنكسر من الحبل والعظم والشجر. فإن الرميم يطلق على كل ذلك إذا صار واهنا واهيا. والريح الشديدة تكسر وتزعزع وتدك، والصرصر لبردها ويبسها تذهب بالقوة والغضارة والحياة.

ويشبه ذلك قوله تعالى في ذكر عاد: ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ [سورة القمر/١٩-٢٠].

[تمتعوا حتى حين] وعدهم نبيهم صالح عليه السلام بعد ما عقروا الناقة أن العذاب ليأخذهم بعد ثلاثة أيام، كما جاء في سورة هود: ﴿فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ [الآية/٦٥].

[فعتوا عن أمر ربهم] "العتو" هو العصيان والاستكبار، والصلة بـ"عن" تدل على تضمنه معنى الاستكبار والاستنكاف.

[الصاعقة] القراءة بالألف، هي الصيحة ويؤيدها ما جاء من ذكرهم في سورة هود: ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ [الآية/٦٧]، ومن قرأ بغير الألف فأراد التفسير لما أنهم صعقوا لشدة الصيحة، كما يبينه ما بعد ذلك.

[وهم ينظرون] جامع لوجوه من المعاني:

**الأول**: إنه كان عيانا وجهرا لم يشكوا فيه كما جاء في قصتهم: ﴿فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء﴾ [سورة المؤمنون/٤١]، ونظير الجملة بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ [سورة البقرة/٥٠]، وهذا كثير.

**والثاني**: كون عذابهم سريعا بغتة فلم يمهلوا، كما قال تعالى في ذكرهم: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾ [سورة

القمر/٣١].

والثالث: أنهم بقوا حيارى لا يهتدون لحيلة، ويبين ذلك ما يتلوه.

[فما استطاعوا من قيام] أي لما سمعوا الصاعقة من السماء أخذهم الخوف والرعدة الشديدة، فالقوا على الأرض، كما جاء من ذكرهم في سورة الأعراف: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ [الآية/٧٨و٩١]، أي أخذتهم الرعدة فلصقوا بالأرض.

[منتصرين] مدافعين عن أنفسهم، كما قال امرؤ القيس:

فأنشب أظفاره في النّسا    فقلتُ هُبلتَ ألا تنتصر [٧٥]

وهذا بيان لما اشتمل عليه ما قبله من نفي استطاعتهم على قيام.

[وقوم نوح] دل بالعطف على المعنى المفهوم في هذه القصص، وقد صرح به في قصة فرعون حيث قال تعالى: ﴿فأخذناه وجنوده﴾ [سورة الذاريات/٤٠]، فالمعنى: إنا أخذنا هذه الأمم وكذلك أخذنا قوم نوح من قبل. ويؤيد ذلك نظائره، قال تعالى: ﴿فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين وعادا وثمودا﴾ [سورة العنكبوت/٣٧-٣٨]، إلى أن قال تعالى: ﴿وقارون وفرعون وهامان﴾ [سورة العنكبوت/٣٩]، إلى أن قال تعالى: ﴿فكلا أخذنا بذنبه﴾ الآية [سورة العنكبوت/٤٠].

ويشبهه قوله تعالى: ﴿وأنه أهلك عادا الأولى. وثمود فما أبقى. وقوم نوح من قبل﴾ [سورة النجم/٥٠-٥٢]، أي أهلك قوم نوح عليه السلام فهكذا ههنا ولا فرق بين "أخذ" "وأهلك". والأصل في أمثاله ما يدل عليه القرينة.

---

٧٥ ديوانه: ١٦١ .



## (١٤)

## بيان وجه أخص مما ذكرنا لنظم جملة هذه القصص بما بدأ السورة من القسم

واعلم أن ذكر قوم لوط، وفرعون، وعاد، وقوم نوح جاء في مواضع من القرآن وأجمل في موضع ما فصله في موضع آخر حذرا عن محض التكرار واختياراً للإيجاز واكتفاء بما يكفى للعظة والعبرة. وربما يلمع إلماعا كما قال تعالى: ﴿هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين كفروا في تكذيب﴾ [سورة البروج/١٧-١٩]، وهكذا ترى في الزبور تلميحات إلى الوقائع المعلومة. فمن مر عليها من غير تأمل خفي عليه وجوه نظامها. وليس هذا موضع تفصيلها ولكن نورد ههنا ما يستبين به من هذه السورة براعة استهلالها وحسن مواقع أمثالها.

فاعلم أن انتقام الله تعالى من هذه الأمم ونصره المؤمنين عليهم كان بتصاريف الرياح، أو بالصاعقة، أو بكلتيهما كما سيأتيك بيانه في الفصول الآتية. فعلى هذا بدأ السورة بشواهد الرياح والسماء ذات الحبك، وقد مر أن المراد بها سماء الشتاء التي تأتي بالبرد والصواعق الهائلة.

## (١٥)

## بيان أن قوم لوط عليه السلام أهلكوا بالريح الذارية

اعلم أن الله تعالى أرسل على قوم لوط ريحا ذارية، فاشتدت وانقلبت حاصبا فأمطرت عليهم حجارة من طين وبلغت من شدتها إلى أن أفكت مساكنهم، كما قال تعالى: ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا﴾ [سورة العنكبوت/٤٠]، وكما قال تعالى: ﴿جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾ [سورة هود/٨٢] أي هبت الزعازع

فهدمت بيوتهم وعروشهم وغطّتهم بالحصى و الرمال، كما قال تعالى: ﴿والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشّى﴾ [سورة النجم/٥٣-٥٤].

في لسان العرب: "المؤتفكات: الرياح التي تقلب الأرض، أي يجعل بطنها ظهرا كالذي يحرث الأرض، وإذا جاء سيل عظيم فغطت الأرض بما ترك عليها من الطين والرمال فهي أيضا مؤتفكة، أو جرت ريح فغطتها قليلا فهي مؤتفكة" (لسان العرب اختصارا).

**تنبيه:**

يرى في بادي النظر أن التوراة تخالف القرآن فيما أمطر على قوم لوط عليه السلام، وفي الحقيقة لا مخالفة بينهما إلا من سوء الترجمة، فإنه قد أخطأ مترجمو التوراة في فهم ما أمطر على قوم لوط فجعلوه نارا وكبريتا. فأما النار، فليس المراد بها إلا الصاعقة.

وبيان ذلك أن التوراة كثيرا ما تعبر عن الصاعقة بالنار. وهذا يظهر مما جاء في التوراة من ذكر آيات موسى عليه السلام التي وقعت على فرعون، فقد جاء في سفر الخروج (٩: ٢٣):

" وأرسل الله عليهم الرعد والبرد، و النار تسعى على الأرض"

والقرآن ذكر هذه الآية فقال: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ [سورة الأعراف/١٣٣]، فعبر عن هذه الأمور الثلاثة بكلمة جامعة وهي "الطوفان"، كما سنبينه في قصة نوح عليه السلام.

ومما يؤيد ذلك أن التوراة لم تذكر في قصة هذه آية موسى أن النار أحرقت شيئا مع أنها ذكرت البرد و الرعد سبع مرات. وصرحت مرة بأنها كانت مطرا حيث جاء:

"وحين رأى فرعون أن المطر والبرد والرعد سكن عصى مرة



أخرى" [٧٦] وقد ذكرت ما كان من ضرر المطر.حيث جاء: " كانت الشعير في سنابلها والكتان في طلعها" [٧٧] و لم تذكر من ضرر النار شيئا.

ويشبه ذلك ما جاء في مزمور ١٤٨: ٨: "النار والبرد والصقيع والغمام والصرصر متمين كلمته". فالظاهر أن المراد من النار هو البرق والصاعقة

وأما ما ذكرت التوراة في قصة قرية لوط من أن إبراهيم عليه السلام رأى من بعيد ارتفاع الدخان فليس إلا ما رآه من ارتفاع الغبار الأسود من بعيد.

هذا، وأما الكبريت كما جاء في سفر التكوين (١٩: ٢٤) "وأمطر الملك على سدوم وعمورة كبريتا ونارا"، فليس المراد به إلا الحجارة.

وبيان ذلك أن الكلمة التي ترجموها "كبريتا" هي الحصباء. ودخل من هذا الباب غلط في لسان الإنكليز في معنى برم اسطون (BRIM STONE) (الحجر المحروق) فظنوا أنه الكبريت، ولكن التوراة شاهدة على أن المراد به الحصباء. فإنك ترى في سفر أيوب (١٨: ١٥) حيث يذكر موت الأشرار: "يسكن في بيته من ليس له (أي الأجنبي الذي ليس من أهله) يذر على مربضه كبريت". أي ينضد على قبره جنادل كما هو العادة، ولا معنى لذرور الكبريت على مرقده.

فقد تبين مما ذكرنا أن الله تعالى أرسل على قوم لوط ريحا ذارية شديدة فغطتهم ومساكنهم، وإن صح ما في نسخة التوراة فأنزل عليهم الصاعقة أيضا

---

٧٦ الخروج ٩: ٣٤ .

٧٧ الخروج ٩: ٣١ .

## (١٦)

## إن فرعون وقومه أغرقوا بالريح الشرقية

اعلم أنه قد كثر ذكر قصة موسى عليه السلام وفرعون في التوراة والقرآن إجمالا وتفصيلا، ولم يستوعب كل الاستيعاب في سورة، بل ربما اكتفى بمحض التلميح لشهرتها ومعرفة الناس بها. وهي مفصلة في التوراة وفيها التصريح بعمل الريح العجيب في هذه الواقعة، فاكتفى في القرآن ببعض الإشارة إليه.

وبيان ذلك أنه جاء في سفر الخروج (١٤: ٢١) "ومد موسى يده على البحر وأذهب الله البحر بريح شديدة من المشرق طول الليلة وجعل البحر يبسا وانفلق الماء" ثم أهدأ الريح في الصبح. فحين اشتدت الريح حملت الماء الغمر إلى المغرب في خليج سويز وترك أرض الخليج الشرقي خليج عقبة يبسا، وحين جرت يسرا رجعت بالماء في محله فغشى الذين اتبعوا طريق موسى في البحر.

وجاء تصديق ذلك في القرآن، ففي سورة الدخان: ﴿فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون. واترك البحر رهوا (أي ساكنا فإن الرهو هو السكون، وسكون البحر يكون بسكون الريح) إنهم جند مغرقون﴾ [الآيات/٢٣-٢٤]، وفي سورة طه: ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى. فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ [الآيات/٧٧-٧٨].

وفي سفر الخروج فيما حمد به موسى عليه السلام ربه (١٥: ١٠) "أنت أرسلت ريحك، فغشيهم البحر". وفي سفر التثنية (١١: ٤) "والتي عملها بجيش مصر بخيلهم ومراكبهم حيث أطاف مياه بحر سوف على وجوههم حين سعوا وراءكم فأبادهم الرب إلى هذا اليوم".



وجملة القول أن الله تعالى نجى موسى عليه السلام وقومه بالريح الشديدة وأهلك فرعون وجنوده بالريح اللينة، وذلك من أعاجيب تصاريفها.

تنبيه:

قد اختلف أهل الكتاب في موضع عبور بني إسرائيل، وأكثرهم على أنهم عبروا خليج سويز ولكن الصحيح أنهم عبروا خليج عقبة. وكذلك وهم بعض المتكلمين في زماننا أن الله تعالى نجى موسى عليه السلام بالجزر وأغرق فرعون بالمد، وأبطلنا هذين الوهمين ببعض البسط في غير هذا الموضع.

## (١٧)

## إن عادا أهلكوا بالصرصر والصاعقة
## وثمود أهلكوا بالصاعقة فقط

مما جاء في القرآن من ذكر عاد لا يخفى على المتوسم أن الصرصر التي أهلكوا بها كانت مصحوبة بالسماء الشاتية التي تأتي بالصاعقة، فإنه كما صرح بأنهم أهلكوا بالريح فكذلك تجد التصريح بأن جاءهم سحاب حال وصاعقة. ففي سورة الأحقاف: ﴿فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شئ بأمر ربها﴾ [الآيات/٢٤-٢٥].

ولا شك إن هذا كان في الشتاء حين تهب الشمال بالصرصر في أيام النحس والمسغبة كما جاء في سورة القمر: ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر﴾ [الآية/١٩]، وكما جاء في حم السجدة: ﴿فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات﴾ [الآية/١٦].

ولا يخفى أن هبوب الصرصر والأيام النحسات من أحوال الشتاء،

قالت ليلى الأخيلة:

ولا تأخذ الكوم الجلاد سلاحها     لتوبة في نحس الشتاء الصنابر

وقال الفرزدق:

بعثت له دهماء ليست بلقحة     تدر إذا ما هب نحسا شمالها

فهذه الريح الشتوية كثيرا ما تأتي بالسحب المقطعة الحمر ذات الحبك، وبالبرد والصواعق كما جاء ذكرها في كلام العرب، وقد سبق بعضه في الفصل الثاني.

ثم ترى التصريح بالصاعقة في عذاب عاد كما جاء في حم السجدة: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ [الآية/١٣]، وهذا لا يغادر شبهة في أن أرسل عليهم صاعقة.

فقد تبين مما ذكرنا أن الله تعالى أرسل عليهم سحابا خاليا وريحا شديدة تحمل الوقر الثقيل وصاعقة هائلة. وإنما أكثر ذكر الريح لأن عملها كان أشد فيهم، فحملتهم وألقتهم صرعى على الأرض. وكذلك تبين أن الصاعقة من آثار السماء الشتوية، فعلمنا استدلالا من الأثر على المؤثر بأن ثمود أرسل عليهم السماء ذات الحبك التي أنزلت عليهم الصاعقة الهائلة والصيحة الصاخة كما أرسل على عاد عارضا ذا صاعقة.

وإذ كان هلاك ثمود بمحض الصاعقة، كما جاء في سورة القمر: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر﴾ [الآية/٣١]، اكتفى بذكر الصاعقة ولم يذكر السحاب وهي تدل عليه التزاما. وهذا كما أكثر ذكر الريح في قصة عاد وإنما ذكر السحاب مرة واحدة، والقرآن كثيرا ما يترك تفاصيل القصص لأسباب قدمناها في أول الفصل الرابع عشر.



## (١٨)

## إن قوم نوح عليه السلام أهلكوا بالريح الشديدة

لم يذكر في هذه السورة من قصة نوح وقومه غير إشارة إلى أنهم أخذوا مثل هذه الأمم، ولكن النظر فيما ذكر منها في التوراة والقرآن يدل تصريحا وإشارة على أنهم أهلكوا بالريح الشديدة.

وذلك بأنه جاء في سورة العنكبوت: ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم الف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ [الآية/١٤]. ولا شك أن الطوفان مصدر بمعنى الدوران يستعمله العرب لما يطوف من الريح الشديدة. قال الراعي يصف الناقة:

تمسي إذا العيس أدركنا نكاثتها     خرقاء يعتادها الطوفان والزؤد [٧٨]

وهكذا تجد أسماءها في ألسنة أخر، مثلا في الفارسية تسمى "كردباد" (الريح المدورة)، وفي الإنكليزية "سائكلون" (الدوارة)، وفي الهندية "بكولا" (دائرة الريح). وكان المصريون يزعمون بإله للريح الشديدة يسمونه "طائفون".

ومن خاصة هذه الريح شدة المطر وفوران الماء من البحر، وقد شاهدنا ذلك من طوفان جاء من مشرق بحر الهند إلى مغربه وحينئذ كنت في مدينة كراتشي، فأنزل مطرا شديدا وقذف السفن على الجبال وفعل ما فعل.

ويطابق ذلك ما جاء في تصوير طوفان نوح عليه السلام في القرآن والتوراة. قال تعالى في سورة القمر: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾ [الآية/١١-١٢]، وفي

---

٧٨ لسان العرب: (نكث).

سفر التكوين ٧: ١١: "...في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء".

وفي سورة هود: ﴿وهي تجرى بهم في موج كالجبال﴾ [الآية/٤٢].

ومن ركب البحر علم أن الأمواج كالجبال لا تنشأ إلا بريح شديدة. وفي ذكر الأثر دلالة على المؤثر، وقد صرح القرآن في غير ما آية بما بين نشأة الأمواج والريح من الملازمة كما قال تعالى: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان﴾ [سورة يونس/٢٢].

وفي قوله تعالى: "وهي تجرى بهم" الآية دلالة على الريح كما يؤيده قوله تعالى: ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام. إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره﴾ [سورة الشورى/٣٢-٣٣]، وقوله تعالى: ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره﴾ [سورة الروم/٤٦].

وهذا القدر يبين أن الله تعالى أرسل على قوم نوح ريحا شديدة دوارة معصرة أنزلت مطرا شديدا وهيجت الماء من بحور حول أرضهم وأنشأت الأمواج العظيمة وأجرت سفينة نوح إلى جبل الجودي ثم سكنت.

**تنبيه:**

في سفر التكوين ٨: ١: "...وأجاز الله ريحا على الأرض فهدأت المياه وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء فأقلع المطر" ويتبادر من ذلك أن الله سكن الطوفان بريح أخرى لينة، ولكن الأقرب أن المراد به مجرد أمر الرب، كما جاء في سورة هود: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك. ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر﴾ [الآية/٤٤].



وذلك لما في العبرانية من كلمة مشتركة بين الريح والأمر والكلمة، فجاء القرآن بصحيح الخبر وإنه ربما يأتي بما يصلح ما أدخلوه في كتاب الله من التحريف والتبديل كما هو مبسوط في موضعه.

## (١٩)

## نظرة في ترتيب هذه القصص ونظمها بالمقسم به وبما بعده من ذكر الآيات

قد تبين مما سبق ربط هذه القصص إجمالا بما أقسم به في أول السورة وبقي النظر في ترتيبها على سبيل التفصيل. ولما كان قصص القرآن مشتملة على وجوه من العبر والدلائل جاءت على ترتيبات مختلفة حسبما يليق بمواضعها. فههنا نكتفي بما يبين نظمها المرعي في هذا الموضع.

فاعلم أن قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام واضحة في جمع البشارة والإنذار، وهكذا أمر الرياح فإنها مبشرات عموما، وأحيانا تكون منذرة. فجعل قصة إبراهيم عليه السلام تمهيدا لما ذكر بعدها من النذر.

ثم كانت العرب تمر كثيرا على قرية لوط وترى آثار ما أمطر عليهم فكانوا أقرب إلى ذكرها.

ثم هي مطابقة لما هو مقدم في المقسم به وهو قوله تعالى: ﴿والذاريات ذروا فالحاملات وقرا﴾ [سورة الذاريات/١-٢]، فإن الله تعالى أهلكهم بريح ذرت عليهم الرمال والحصباء، وحملت منها وقرا ثقيلا حتى غطتهم ومساكنهم

ثم هذه القصة منظومة في سلك ما تقدم آنفا من قوله تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ [سورة الذاريات/٢٠]، كما مر في الفصل الحادي عشر، فقدمها لهذه الوجوه الأربعة.

وأما قصة موسى عليه السلام فهي أكثر القصص ذكرا في القرآن و أبقى أثرا في الكتاب. ثم هي مطابقة لما هو التالي في المقسم به وهو قوله تعالى: ﴿فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا﴾ [سورة الذاريات/٢-٣] حسبما سبق من تأويله. ثم صدر هذه القصة والتي قبلها بأسماء الأنبياء وكانتا أولى بالتبشير فضمها بمثلها.

ثم ذكر ما فيه الإنذار فذكر قصة عاد وثمود باسميهما، وكان عذابهما من آيات السماء ذات الحبك كما علمت فذكرهما بعد الأولين. وحسب ذلك جاء القسم بالسماء بعد القسم بالرياح، وقدم عادا لتقدمها زمانا ولكون قصتها جامعة للريح والسماء فكانت أولى بما قبلها.

وأما قصة نوح عليه السلام فقد جعلها الله آية باقية لرحمته على جميع الأمم كما قال تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية. لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾ [سورة الحاقة/١١-١٢]، وقد علمت في الفصل السابق ما كان فيها من ظهور آيات الأرض والسماء والريح والسحاب والفلك والماء، فكانت جامعة لآيات الله في الأنفس والآفاق. فكانت مناسبة بما بدأ به السورة من القسم بالريح وبما ختم به الدلائل من جوامع الكلم في آيات الأرض والنفس والسماء، فحسن موقعها بعد ذكر الآيات الخاصة تمثيلا جامعا لما قدم من الدلائل.

وأيضا كان قوم عاد وثمود خلائف بعد قوم نوح، فوصل بينهما كما تجد ذلك حيث يذكرهم على ترتيب الزمان. وأشبه الآيات بذلك قوله تعالى: ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ [سورة النجم/٥٠-٥٢]، واكتفى بمجرد الإلماع إليها لشهرة أمرها وبعد عهدها، واشتراك جميع الأمم فيها فذكرها إتماما واستطرادا.



ثم رعاية للإيجاز المرعي فيما سبق دل على كونها مستقلة بقطعها عن نسق ما تقدم بتغير الأسلوب فلم يقل "وفي نوح" كما قال فيما تقدم "وفي موسى" "وفي عاد" وفي ثمود" وكذلك لم يأت بها في نسق حديث ضيف إبراهيم

## (٢٠)
## نظم هذه الجملة بما بعدها

لا يخفى أن أهم مطالب الدعوة الأولى ثلاثة أصول: التوحيد، والدينونة، والرسالة. ولما بين هذه الثلاثة من الاتحاد والاتصال ربما تذكر معا، وربما يتخلص من بعضها إلى بعض. وقد سبق في أوائل الفصل الثامن أن دلائل الدينونة والرسالة متفرعة على التوحيد وراجعة إليه، فعلى هذا بعد ذكر الأدلة على الدينونة أتمها بالاستدلال على التوحيد، ولكن لم يقطعها بل وصلها وتخلص منها إليها وضمنها المطلب الثالث وهو ذكر الرسالة، فقال عز من قائل حكيم خبير:

﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (٤٧) والأرض فرشناها فنعم الماهدون (٤٨) ومن كل شيءٍ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (٤٩) ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين (٥٠) ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين﴾.

## (٢١)
## تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٤٧-٥١)

[والسماء...] الآية عطف على ما سبق من دلائل الوقائع، فإن الدلائل الفطرية شهادة أخرى [بأيدٍ] أي بقوة. أيده: قواه، كما قال تعالى: ﴿أ أنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها﴾ [سورة

النازعات/٢٧-٢٨]. والسماء مظهر القوة العظيمة والحكمة الباهرة كما فصل في غير ما آية.

[لموسعون] أي ذو سعة في الاقتدار فلا نهاية لقدرته، كما هو ظاهر على كل من نظر في السماء وبنائها وسعتها وإحاطتها ورفعتها.

[فرشناها...] الآية. أي جعلها فرشا موطأ لنا كما قال تعالى: ﴿جعل لكم الأرض فراشا﴾ [سورة البقرة/٢٢]، وأيضا: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا﴾ [سورة النبأ/٦]، وأيضا: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها﴾ [سورة الملك/١٥].

[خلقنا] موقع الآية نبه على أن بناء السماء وفرش الأرض داخل في قوله تعالى: "خلقنا" أي كما أنه بنى السماء وفرش الأرض وأخرج من هذين الزوجين منافع لعباده فكذلك من كل شئ خلق الزوجين لعلكم تذكرون المعاد وتعترفون بكونه ربا واحدا فوق الخلق كله مدبرا قديرا رحيما حكيما. وسيأتيك بيان ذلك في الفصل التالي.

[زوجين] في معنى الزوج وجهان:

الأول: كون أحدهما تماما للآخر يصلح هذا لذاك حتى يأتيا بنتيجة من بينهما كما قال تعالى: ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ [سورة الأنبياء/٩٠].

والثاني: كون أحدهما قسما مقابلا للآخر كما قال تعالى: ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى﴾ [سورة طه/٥٣]، ومثله: ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ [سورة ق/٧].

[منه نذير مبين] "منه" أي من عنده، وليست صلة للنذير، فإنه لا يقال أنذره منه بل أنذره إياه كما جاء في القرآن كثيرا.

وهذا القول لم يكرر لمحض التأكيد بل لكل تأويل على حدته حسب محله. فإن محل الأول الترغيب، فتأويله أنه تعالى من رحمته أرسل



إليكم نذيرا لينذركم عواقب الغفلة والركون إلى الموبقات لكي تفروا منها إلى ربكم الرحيم التواب.

والثاني محله الترهيب، فتأويله أن الشرك إثم عظيم ولا عذر لكم، فإنه أرسل إليكم نذيرا مبينا من عنده.

## (٢٢)

## الاستدلال بخلق الزوجين من كل شئ على التوحيد وما يلزمه من الإيمان بالرسالة والمعاد

اعلم أن الدليل على الله الواحد واضح على العقول فطرة، ولذلك ترى أكثر الملل مذعنة به لما أن هذا الخلق المشهود بعجائبه وعظمه وسعته كله شاهد عليه ولكنهم ذاهلون عن النظر الصحيح فيه. فمع الإيمان بالله كأنهم لم يؤمنوا به كما قال تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ [سورة يوسف/١٠٦]، فالقرآن كثيرا ما يدعو إلى الخالق بوجوه تنفي الشرك، وتستأصل جرثومه، وينبه على ما يلزم التوحيد من الإيمان بالمعاد والرسالة. وقد أكثر القرآن من هذا النمط إجمالا وتفصيلا. وليس هذا موضع البسط فلنكتف ههنا بقدر الحاجة، فنقول وبالله التوفيق.

اعلم أن الاستدلال ههنا بخلق الزوجين من كل شئ على وجهين حسب معنيين للزوج.

أما الوجه الأول: فإن الخلق مع سعته واختلافه في الطبائع شاهد على رب واحد مدبر قاهر عليه، فإنه لو كان في كل خلق رب يدبره لم يكن بين طبائع أفراده تواطؤ على نتيجة ليست عائدة إليها. فإنك ترى أفرادها مسخرة لنفع أبعدها. زعم الملحدون أن كل موجود نشأ وتم وترقى لقوى مستترة فيه، فأبرز أعضاء لما يصلح بشئونه ويقضي حاجاته

فهذا مع سخافته لا يكشف عن أمر خارج عن نفس الشئ وهو مناسبة لما هو في غاية البعد عن علمه وحاجاته فمناسبة زوج لزوج تستدعي خالقا خارجا عنهما عالما بمصالحهما لكي يجعل أحد الزوجين موافقا للآخر.

ولا يخفى أن هذا العالم بأسره شئ واحد وفيه أمور غير تامة تقتضي لتمامها زوجا يتم به وتتم به مصلحة كليهما وهي الدار الآخرة. فهذا الاستدلال يتضمن أمرين عظيمين:

الأول: إثبات خالق قادر حكيم جعل الخلق بعضه تماما وزوجا لآخر، وأصلح هذا لذلك حتى ينتجا منافع لعباده.

والثاني: إثبات معاد ودار أخرى لهذه الدار المشهودة. وهذا الاستدلال مبسوط ببعض البسط في تفسير سورة الشمس فراجعه.

أما الوجه الثاني: فإنكم ترون الخلق مختلف الأنواع يخالف بعضها بعضا مع اتحادها في الأصل وما حولها من الأسباب العامة، فهذا يدل على رب مدبر يربي هذه الأنواع كلها على نهجها، فلابد أنه واحد فوق كل ذلك ويسوسها مع تصادمها وتشاكسها بحيث لا يتعدى بعضها على بعض فلا خبط ولا شطط

وهذا كما يدل على تفرده بالقدرة والتصرف والعلم والحكمة، فكذلك يدل على جعل الكل حسبما يليق له، فلابد أنه لا يجعل المحسن كالمسئ ولا الطائع كالعاصي. وهذا برهان واضح على صحة المعاد. وقد فصل ذلك في مواضع من القرآن، فاكتفينا ههنا بإيجاز القول.

وهذا الاستدلال بخلق الزوجين بكلا الوجهين كما يدل على خالق واحد مدبر لما خلق، فكذلك يدل على رب رؤوف ودود أحاط الكل علما ورحمة. فجميع الخلق من السماء إلى الأرض مسخر مقهور تحت قدرته ومجرى إلى المنافع لعباده.



وإذ أحاطت قدرته ورحمته فهو الملجأ والمستعان وحده، وبيده الخير كله، وبإذنه يقع الضر لمن خالف أمره والتمس الخير من غيره كما صرح به القرآن كثيرا، ومنه قوله تعالى: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم. يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾ [سورة فاطر/٢-٣]، أي فأنى تصرفون عنه وهو الملجأ والمولى، وترون نعمه السابغة ورحمته الواسعة.

ومن كمال رحمته أنه يبعث الرسل ليحذروا الناس عن سيئات أعمال الذين يحيدون عن سبيل الخير ويؤفكون عن المولى الحق. فوظيفة الرسل أن ينذروا الناس ليفروا إلى مولاهم ويبينوا لهم ما أطل عليهم من العقاب.

فمن استكبر عن الإصغاء إلى رسله الناصحين لهم بقول واضح وبرهان مبين فقد أورد نفسه الهلاك، فلا لوم إلا عليه. وذلك بأنه أبق عن مولاه، ثم لم يسمع لداعيه، وأنكر بما يقع عليه من نتائج أعماله السيئة، فذلك ثلاثة أمور. وهذه الآيات ناظرة إليها وداعية إلى التوحيد بوجه يتضمن الدعوة إلى الرسالة والإيمان بالمعاد ويبين أنهما من لوازم الإيمان بالله الواحد الرحيم القادر الحكيم.

## (٢٣)

## نظم هذه الجملة في نفسها، وبما سبق وبما لحق

اتضح مما سبق أن حاصل هذه الآيات الدعوة بآيات الفطرة إلى أن الله تعالى هو ربكم الذي آواكم ورزقكم، وقد تبين لكم النذر والأمثال ممن عصوه ولم يسمعوا لرسله، فإن سلكتم طريق هولاء يخاف عليكم

بعض ما وقع على تلك الأمم، كما قال تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ [سورة حم السجدة/١٣]، وأيضا تبين أنه لا رب ولا مجير سواه كما قال تعالى: ﴿وهو يجير ولا يجار عليه﴾ [سورة المؤمنون/٨٨]، وقد تبين لكم من كل شئ آثار رحمته وقدرته وإحاطة علمه وحكمته ففروا إليه واسمعوا لمن أرسله إليكم داعيا إليه وإلى جميع الخيرات ليغفر لكم فإنه واسع المغفرة.

وترى مثل هذه الدعوة في رسالة نوح عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم. قال يا قوم إني لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. يغفرلكم من ذنوبكم و يؤخركم إلى أجل مسمى﴾ [سورة نوح/١-٤].

وهذا من باب جمع الترغيب بالترهيب، وترى رعاية ذلك في قصص القرآن كثيرا، مثلا قوله تعالى: ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأن عذابي هو العذاب الأليم. ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾ [سورة الحجر/٤٩-٥٠]، فهكذا ههنا أورد قصص الأمم لا لمحض الإنذار بل لكي يتوبوا إلى الرب الرحيم.

ثم بعد ما فرغ من التنبيه على الدلائل الواضحة من كل باب ومن الدعوة إلى الرب تعالى الواحد وهو الأصل من المطالب الثلاث عطف إلى تسلية النبي المتضمنة لمطالب مهمة، وهذا كثير في القرآن. وربما تراه في أواخر السورة كما مر ذلك في تفسير السورة السابقة مع بعض الشواهد.

فعلى هذا الأصل ختم السورة بالتسلية على أسلوب جامع لمطالب مهمة كما سيأتيك ذكره. فقال عز من قائل حكيم:

﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون (٥٢) أتوا صوا به بل هم قوم طاغون (٥٣) فتول عنهم فما أنت بملوم



(٥٤) وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين (٥٥) وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٥٦) ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون (٥٧) إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين (٥٨) فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون (٥٩) فويل للذين كفروا من يومهم الذين يوعدون (٦٠)﴾.

## (٢٤)

## تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٥٢-٦٠)

[كذلك...] الآية دل بالاستئناف على الشروع في خطاب آخر، وأشار بذلك إلى ما سبق من إنكار الأمم بالرسل. فكأنه قيل كما أن هؤلاء المذكورين السابقين كذبوا فكذلك كل أمة قبل قومك المنكرين كذبوا برسلهم، فلا تحزن عليهم ولا يضق صدرك من تأخر غلبة الحق فتستعجل بالفتح.

[قالوا ساحرٌ أو مجنونٌ] قد مر فيما سبق من ذكر قول فرعون لموسى عليه السلام: ﴿فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون﴾ [سورة الذاريات/٣٩]، فهكذا كان قول كل أمة مكذبة. وقد جاء في القرآن أن كفار العرب قالوا مثل ذلك لنبيهم، فهذا يشير إلى قولهم.

[أ تواصوا به بل هم قوم طاغون] الاستفهام للاستنكار، و "بل" للإضراب ليذكر ما هو الحقيقة. كأنه قيل ما أبعد قولهم فهل تواصوا به، فالخلف يتبع السلف تقليدا فلا يعملون عقولهم. ثم أضرب عنه فقال بل ذلك لعتوهم وطغيانهم.

[فتول عنهم فما أنت بملوم] أي أعرض عنهم وأمهلهم. والأمر بذلك لا يكون للإعراض الكلي بل للإمهال لتسكن شدتهم، وللصفح عن سيّء قولهم تكرما وتوكيلا لأمرهم إلى ربهم، كما قال تعالى: ﴿فذكر إنما

أنت مذكر لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر. إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾ [سورة الغاشية/٢١-٢٦]، وكما قال تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [سورة الرعد/٤٠]، وللكف عن الإلحاح الذي هو من شنشنة الأنبياء، كما ترى في أمثال قوله تعالى: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ [سورة الكهف/٦]، ومنها قوله تعالى: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾ [سورة فاطر/٨]. ولهذه الوجوه يقرن هذا الأمر:

١- بالتهديد للمنكرين.

٢- وبوعد النصر للمؤمنين.

٣- وتسلية النبي بأنه برئ الذمة بعد إتمام الحجة والبلاغ المبين فلا يلح على المنكرين.

٤- وبأمر النبي بالتوكل والصلاة والرضى بما جعل الله للكفار من المهلة. فإن الله تعالى هو الوكيل ويعطي الهداية لمن يشاء حسب علمه بأحوال عباده ولا يعجل بالعذاب بل يمهل لكي يتوب بعضهم، فعلى النبي والمؤمنين أن يصبروا ويصفحوا وينتظروا غلبة الحق والفرقان.

وعلى ما ذكرنا شواهد كثيرة، فمنها قوله تعالى: ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا. وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا. إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما﴾ [سورة المزمل/١٠-١٣]، وقوله تعالى: ﴿وأعرض عن المشركين. إنا كفيناك المستهزئين. الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون. ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون. فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين. واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [سورة الحجر/٩٤-٩٩]، وقوله تعالى: ﴿ولقد



سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون. فتول عنهم حتى حين. وأبصرهم فسوف يبصرون. أ فبعذابنا يستعجلون. فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين. وتول عنهم حتى حين. وأبصر فسوف يبصرون﴾ [سورة الصافات/١٧١-١٧٩].

وسورة الشعراء كلها تبين طرفا من هذا التأويل وهو أن الله تعالى لا يعجل بالأخذ وأن أكثر المنكرين لا يؤمنون، فعلى النبي أن لا يحزن لتباطؤ الفصل فذكر فيها قصص الأمم ورجع بعد كل قصة بقوله: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [سورة الشعراء/٨-٩، ١٠٣-١٠٤، ١٢١-١٢٢، ١٣٩-١٤٠، ١٥٨-١٥٩، ١٧٤-١٧٥،١٩٠-١٩١].

[وذكّر] أي مع الإعراض عن هؤلاء لا تترك التذكير العام كما بين حكمة ذلك فيما بعد.

[الذكرى] هي عامة، ولكن غالب النظر ههنا إلى التذكير بالمعاد كما قال تعالى: ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ [سورة إبراهيم/٥]، وجاء كثيرا بعد دلائل البعث مثل قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى﴾ [سورة الزمر/٢١، وسورة ق/٣٧]، أو كقوله: ﴿تبصرة وذكرى﴾ [سورة ق/٨].

[ذو القوة المتين] لكون الوقف على المتين لا يظهر إعرابه، فلا يكون موضعا لاختلاف القراءة فيه. وإنما اختلفوا في فهم إعرابه، فمنهم من يظنه جرا عل أنه وصف للقوة. فإن القوة في الأصل هي طاقة الحبل، والحبل يوصف بالمتين عموما فجاء وصفا للقوة. وإنما لم يؤنث لكونه فعيلا كما ترى في قوله تعالى: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ [سورة الأعراف/٥٦].

ومنهم من يظنه رفعا على أنه وصف لذي القوة ولكن المتين لا

يوجد في صفات الرب تعالى، فلابد أن يكون بتقدير فاعله أي المتين قوته فلا اختلاف بين الإعرابين من جهة التأويل.

(ذنوباً) الذنوب: الدلو الملأى، ولا يقال لها ذنوب وهي فارغة. ومنها للحظ والنصيب قال أبو ذؤيب:

لعمرك والمنايا غالبات لكل بني أب منها ذنوب

وقال علقمة بن عبده يمدح حرثا:

وفي كل قوم قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نداك ذنوب ٧٩

والمراد ههنا، والله اعلم، أن لهؤلاء الظالمين حظا محدودا من المدة يتمتعون فيها حتى تملأ هذه المدة من جهة الرب مما قدر لهم من الرزق والتمتع، ومن جهتهم مما يعملون من سيئات أعمالهم فيحق عليهم العذاب. وما أحسن كلمة ذنوب دلالة على هذا المعنى.

ويبين هذا التأويل ما بعد ذلك وعليه شواهد كثيرة، فمنها قوله تعالى: ﴿وربك الغفور ذو الرحمة. لو يواخذ هم بما كسبوا لعجل لهم العذاب. بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا﴾ [سورة الكهف/٥٨]، أي لهم زمان موقت. فالمراد بالذنوب هو الزمان الذي أعطى لهم، فإذا امتلأ بما قدر لهم من التمتع وعملوا ما هم عاملون فيه فكان ذلك ذنوبهم أي حظهم من الزمان والمهلة.

## (٢٥)

## تأويل قوله تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" إلى قوله "المتين"

لما كان هذه الآيات الثلاث مشتملة على مطالب مهمة من بيان

---

٧٩ الطبري ٢٧: ٩ .



غاية خلقنا ولزوم المعاد منها، وبشارة للمؤمنين، وإنذار للمنكرين كما سنذكرها في هذا الفصل مع أمور آخر وكان نظمها متضمنا للاستدلال على المعاد، وازالة شبهة تعترى المنكرين لعدم أخذهم بالفور وبذلك يتبين اتصالها بما سبق ولحق من الأمر بالإعراض والانتظار، احتجنا إلى بيانها ببعض البسط فنقول بعون الله وتوفيقه.

اعلم أن سياق هذه الآيات بيان حكمة الإعراض عن هؤلاء المنكرين الطاغين، وإمهالهم لمدة كما صرح بذلك في مواضع ؛ وقد سبق بعض الشواهد عليه. فموقعها موقع الدليل لما سبق من قوله تعالى: ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾، إلى قوله: ﴿المؤمنين﴾ [سورة الذاريات/٥٤-٥٥].

وتفصيل هذا الاستدلال أن الله تعالى لم يخلق الجن والإنس لاستخدامهم كما يستخدم السادة خدامهم ليجعلوا لهم الأرزاق ويكونوا لهم قوة وشوكة، فإنه تعالى هو المتكفل برزق عباده. وبالجملة فإنه تعالى لم يخلقهم ليستخدمهم ومع ذلك لم يخلقهم عبثا أو لهوا، فلابد أنه تعالى خلقهم لكي يسعدوا ويتنعموا برحمته. فمن تأمل ذلك تبين له أن سعادته في أن يعبد ربه لأنه لم يأمرهم إلا بما فيه نفعهم وكمالهم، ولذلك قد خلقوا. وذلك بأن غاية الخلق إكمال وجوده فإن الخيرات مكنونة، فبالخلق تظهر وتخرج من القوة إلى الفعل فتوجد خيرات أخر حتى يرتقي الخلق إلى كمال رفعته وسعادته كما قال تعالى: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ [سورة الفاطر/١٠].

وإذ كان ذلك كذلك فلابد من أمرين:

الأول: أنه تعالى لا يعجل بعذابهم إذا لأبطل ما بقي في الخلق من الخيرات كما قال تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من

دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ [سورة النحل/٦١]، فلذلك يمهلهم حتى يرجع من كان فيه أدنى استعداد أويتم عليهم الحجة.

والأمر الثاني: أنهم إذا لم ينتهوا عن السيئات وتمت عليهم حجة الرب، فلابد من إهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾ [سورة الكهف/٥٩].

وقوله تعالى: "ذو القوة المتين" جامع لوجهين:

الأول: إن هؤلاء ليسوا مثل الخدم لسادتهم ذريعة لكسب الأرزاق وسببا للقوة والشوكة حتى إذا خرجوا عن الخدمة دخل الضرر في منافعهم أو الخلل في ملكهم، فإن الله تعالى لا ضعف في ملكه.

والثاني: إنه تعالى إذا أمهلهم لمدة فليسوا خارجين عن بطشه فإنه محيط بهم، فإذا شاء أخذهم، فلذلك جعل للمنكرين مهلة ومدة كما بين ذلك فيما وصل من قوله: ﴿فان للذين ظلموا ذنوبا ...﴾ [الآية/٥٩].

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس﴾، إلى قوله: ﴿المتين﴾ [الآيات/٥٦-٥٨]. كما يدل في جانب المنكرين على أمرين: إمهالهم لمدة، وإهلاكهم بعدها كما مر آنفا، فهكذا يدل في جانب النبي الكريم ﷺ على أمرين: على محض الدعوة حسب أمر ربه، وعلى جعل باقي أوقاته مشغولا بالصلاة والتضرع وذكر الله وحمده وتسبيحه فإن كليهما عبادة.

ويدل على ذلك نظير هذه الآيات وهو قوله تعالى: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ [سورة طه/١٣٢].

ففي كلا الموضعين دل على نفي الاستخدام و وجوب العبادة. وقد جاء الأمر بالصلاة والتبتل إلى الرب وتوكيل أمر المنكرين إليه في



مواضع كثيرة، فهكذا ههنا دل على أن كلنا عباد الله والأمور تجرى حسب مشيئته وحكمته.

هذا ومما ذكرنا اتضح أن هذه الآيات اشتملت على حكم عظيمة ولنذكرها الآن:

حكمة الخلق وغايته، وهي العبادة لله وحده.

الفرق بين العبادة والخدمة، وذلك يبين حقيقة الربوبية.

ضرورة الإمهال من جهة حكمة الخلق ورحمة الرب.

لزوم الدينونة وغلبة الحق من جهة حكمة الخلق وعدل الرب.

عدم التمني لفصل الأمر بالفور، بل الرضى بما يجرى الله من الأمور حسب حكمته وعدله ورحمته.

كون الصلاة وذكر الله رأس العبادات لتضمنها الخضوع والتوكل.

وعمود هذه الآيات المعاد، فإن كون الخلق لغاية يدل على أن العباد يسألون ويجزون. ثم ذلك أيضا يدل على أنهم لا يبقون إلا لمدة حسب مقتضى الحكمة، وهذا يدل على غلبة الحق وأن الباطل إنما هو لوقت. وقد صرح بذلك في مواضع، ومنها قوله تعالى: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين. فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون. لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون. قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين. فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين. وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين (أي هو اعلى من أن يتلهى بشئ من هذا العالم الأسفل) بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون. وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ [سورة الأنبياء/١١-٢٠].

فبين أنه تعالى إنما أهلك الأمم الظالمة واستخلف بعدها أمة أخرى لأنه لم يخلقهم لهوا فيتلهى ناظرا إلى ما يفعلون لا يدينهم، ولكنه يريد الحق فيقذفه على الباطل وكل شئ ما سوى الله باطل. وإنما وجوده من قبل ارتدائه جلباب الحق بعبوديته لله الحق حتى الملائكة المقربون باقون لدوام عبوديتهم، فإنهم يصلون الليل والنهار، فإن بها استحقاق الوجود. فمن تخلى عنها جلب على نفسه الهلاك والعذاب. وكل ذلك يدل على كبريائه وحكمته وعدله ورحمته. وفي ذلك انذار شديد للظالمين الطاغين وبشرى للمحسنين. نظرة في نظم الآيات الخاتمة وفيما تضمنت

### من المطالب المهمة

وقد تبين مما سبق أن هذه الآيات التسع جاءت على وجه التسلية، ولكنها اشتملت من المطالب المهمة على أمور:

- على تعليم المداراة والصفح عما يقول الظالمون.
- وعلى تعليم الصبر والانتظار لغلبة الحق.
- وعلى اتصاف الرب تعالى بالحكمة والرحمة والعدل.
- وعلى حكمة الإمهال.
- وعلى تدبيره الأمور حسب الآجال.
- وعلى ذكر غاية الخلق وكماله.
- وعلى بيان حقيقة الربوبية والعبودية.
- وعلى لزوم المعاد.

وجعل نظم هذه المطالب في غاية الاتساق والاعتناق بما رتبها ترتيبا يستدل ببعضها على بعض، ويستخلص من السابق إلى اللاحق حتى يبلغ الكلام إلى عمود السورة وهو الإنذار والتخويف لكي يتوبوا إلى ربهم.

هذا آخر ما تيسر لنا ذكره من تفسير هذه السورة، والحمد لله رب العالمين والصلاة على رسوله الأمين محمد وآله وصحبه أجمعين.



## تفسير سورة الذاريات

## فهرس مطالب الفصول


تفسير سورة الذاريات ١١٧

(١) في عمود السورة واتصالها بما قبلها ونظمها في نفسها إجمالاً ١١٩

(٢) تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (١-١٤) ١٢١

(٣) بيان وجه الاستشهاد بالرياح والسماء على الدينونة ١٢٨

(٤) نظم هذه الآيات بعضها ببعض وبما بعدها ١٢٩

(٥) تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (١٥-١٩) ١٣٠

(٦) نظم هذه الآيات ودلالتها وموقعها مما قبلها ومما بعدها ١٣٢

(٧) تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٢٠-٢٣) ١٣٣

(٨) جملة الكلام في بيان وجه الاستدلال بهذه الآيات على وقوع الدينونة ١٣٦

(٩) بيان الاستدلال على المعاد بالنطق الإنساني ١٣٨

(١٠) بيان نظم هذه الآيات في نفسها وبالسابق واللاحق ١٤٤

(١١) تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٢٤-٣٧) ١٤٥

(١٢) نظم هذه القصة بما قبلها وبما بعدها ١٤٨

(١٣) تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٣٨-٤٦) ١٤٩

(١٤) بيان وجه أخص مما ذكرنا لنظم جملة هذه القصص بما بدأ السورة من القسم ١٥٣

(١٥) بيان أن قوم لوط عليه السلام أهلكوا بالريح الذارية ١٥٣

(١٦) إن فرعون وقومه أغرقوا بالريح الشرقية ١٥٦

(١٧) إن عاداً أهلكوا بالصرصر والصاعقة وثمود أهلكوا بالصاعقة فقط ١٥٧

(١٨) إن قوم نوح عليه السلام أهلكوا بالريح الشديدة ١٥٩

(١٩) نظرة في ترتيب هذه القصص ونظمها بالمقسم به وبما بعده منذكر الآيات ١٦١

(٢٠) نظم هذه الجملة بما بعدها ١٦٣

(٢١) تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٤٧-٥١) ١٦٣

(٢٢) الاستدلال بخلق الزوجين من كل شيء على التوحيد وما يلزمه من الإيمان بالرسالة والمعاد ١٦٥

(٢٣) نظم هذه الجملة في نفسها، وبما سبق وبما لحق ١٦٧

(٢٤) تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٥٢-٦٠) ١٦٩

(٢٥) تأويل قوله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) إلى قوله: (المتين) ١٧٢